الفصل الثاني
من أسرار حرف الاستعلاء

على وحرف الوعاء

إنَّ أكثر الحروف التباسًا بحرف الاستعلاء ، وأشدَّها قربًا منه ، هو حرف الوعاء ، ولكثرة ما ورد من المواطن التي دقَّ فيها الفرق بين المعنيين ، صرَّح كثير من اللغويين والنحاة بتداخل الحرفين. قال البطليوسي: «(في) و(على) يتداخل معنياهما في بعض المواضع ، فلذلك يقع بعضهما موقع بعض ، لأن معنى (على) الإشراف والارتفاع ، ومعنى (في) الوعاء والاشتمال ، وهي خاصة بالأمكنة ، ومكان الشيء قد يكون عاليًا مرتفعًا ، وقد يكون متسفلاً منخفضًا» (١).

وكثيرًا ما لجأ المفسرون إلى مثل هذا الرأي حينما كان يستغلق عليهم سرُّ إيثار «على» في موضع ، واختصاص «في» بموضع آخر ، فيما اشتبه نظمه من القرآن الكريم ، ومع أنَّ الزمخشريَّ كان أكثر المفسرين استلهامًا لمعاني الحروف ، وكشفًا عن أسرارها ، فإنه يلجأ إلى مثل هذا القول حين لا يظهر له السرّ ، ولا ينكشف أمامه الستر ، وحسبُنا دليلاً على خطورة ما نعالجه أنْ تَندَّ عن جارالله بعضُ الشوارد ، وتفوته بعضُ المُلح والطرائف مما تنشره الحروف على ما حولها ، وتدسه في زوايا النصوص.

ففي قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ (فصلت: ٣-٥).

يقول الزمخشريُّ: «فإن قلتَ: هلا قيل: على قلوبنا أكنَّة ، كما قيل

---

(١) الاقتضاب ٢/ ٢٨٢.

– وفي آذاننا وقر – ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلتُ: هو على نمط واحد ، لأنَّه لا فرق بين قولك: (قلوبنا في أكنة) و(على قلوبنا أكنة) ، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، ولو قيل: (إنا جعلنا قلوبهم في أكنة) لم يختلف المعنى ، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني»[1].

والزمخشريُّ الذي يُسوِّي في الدلالة بين «على» و«في» هو نفسه الذي حمل على من يقول بتساوي الحرفين من حروف المعاني ، وصحة أحدهما في موضع الآخر ، وقد نقلنا عنه فيما مرَّ قوله «فإن قلتَ: يجري لأجل مسمى ، ويجري إلى أجل مسمى ، أهو من متعاقب الحرفين؟ قلتُ: كلا ، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ، ضيق العطن» [2].

فلم قَبِل هنا أن يكون الحرفان بمعنى واحد؟ ولماذا رفض أن يكون إيثار «في» من قبيل المشاركة اللفظية ، معللاً ذلك بأنَّ المطابيع لا يراعون المشاكلة إلا في المعاني؟ وهو الذي سبق له – قبل صفحتين اثنتين وفي آخر سورة غافر – أنْ جعل هذه المشاكلة اللفظية سرَّ اختيار حرف الاستعلاء مع صحة حرف الوعاء في مكانه ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (غافر: ٨٠) ، فقال: «فإن قلتَ: هلا قيل: وفي الفلك ، كما قال: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؟ قلتُ: معنى الإيعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما مستقيم ، لأنَّ

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤٢ – ٤٤٣.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٧.

الفلك وعاء لمن يكون فيها ، حمولة له يستعليها ، فلمَّا صحَّ المعنيان صحت العبارتان ، وأيضًا فليطابق قوله (وعليها) ويزاوجه» [1].

وبتأمُّل ما جاء في هذه السورة مؤثرًا حرف الوعاء ، ومقابلته بثلاثة مواضع أخرى أوثر فيها حرف الاستعلاء ، نستطيع أن نجد من أغراض النظم ما يتطلب كلاً في موضعه. فالمواضع الثلاثة التي خصَّت بحرف الاستعلاء إنَّما هي إخبارٌ من الله تعالى بعدم قبولهم للهداية ، لأنَّه ختم على قلوبهم وأسماعهم فهم لا يسمعون ولا يعقلون ، وقد جاءت كلُّها مخاطبة الرسول – عليه السلام – تسلية له ، وتخفيفًا من آلامه وحزنه على عدم استجابة قومه له ، ورفضهم قبول دعوته ، وكأنَّه يقول له: لست مسؤولاً عن إعراضهم ، وهل بمقدورك أن تُسمع الأصمَّ ، وتصل بدعوتك إلى قلوبٍ طبع الله عليها! وهذا سياق المواضع الثلاثة: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ ﴾(الأنعام: ٢٥) ، ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ ﴾(الإسراء: ٤٥-٤٦). ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف: ٥٧).

وإخبار الله تعالى بعدم نفاذ الحق إلى أسماع الكافرين ، وإشراق نور الهداية على قلوبهم ، يكفي فيه جعل الأكنة مستعلية على القلوب ، دالةً على أنها أغطية تحول دون وصول الهداية إليها.

أما آية «فصلت» فقد جاءت على ألسنة المشركين مكتسية ثوبًا من

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٣٩.

المبالغة في رفض الاستماع إلى الوحي ، معلنين أنَّ حرفًا واحدًا لن ينفذ إلى أسماعهم ، وأنَّ قلوبهم قد أحاطت بها أغطيةٌ كثيفةٌ ، وشملتها اشتمالَ الظرف للمظروف ، بحيث لن تجد دعوة الرسول ثغرةً تنفذ منها إلى هذه القلوب ، وإمعانًا في تكثيف الموانع والحواجز ، أعلنوا أنَّهم أقاموا بينه وبينهم حجابًا يمنع وصول صوته إليهم ، لهذا كانت «في» الدالة على احتواء الأكنة للقلوب وإحاطتها بها هي الأنسب لهذا المقام.

وبنحوٍ من هذا ردَّ أبوحيان على الزمخشريِّ: «ونقول: إن (في) أبلغ في هذا الموضع من (على)؛ لأنَّهم قصدوا إفراط عدم القبول ، لحصول قلوبهم في أكنة ، احتوت عليها احتواءَ الظرف على المظروف، فلا يمكن أنْ يصل إليها شيء ، كما تقول: المال في الكيس ، بخلاف قولك: المال على الكيس ، فإنَّه لا يدل على الحصر وعدم الحصول دلالة الوعاء ، وأما في قولهم (إنا جعلنا) فهو من إخبار الله تعالى ، لا يحتاج إلى مبالغة بخلاف قولهم» [1].

ونعود إلى حديث الفُلْك ، وكونها صالحة للظرفية والاستعلاء ، كما قال الزمخشريُّ ، باعتبارها وعاءً لمن يكون فيها ، وحاملة لمن يستعليها ، وهذا صحيح ، لكنَّه لا يمنع أنْ يكون لاختلاف النظم في التعدية إليها بحرف الوعاء تارة ، وبحرف الاستعلاء أخرى ، أسرارٌ توجب وقوع كُلٍّ من موقعه.

وقد أحصيت أحد عشر موضعًا في الكتاب العزيز جاء فيها لفظ «الفلك» ، أو ما في معناه ، كالسفينة والجارية ، أو ضميره مجرورًا بـــ«في» ، وكلها مواطن تستدعي حرف الظرفية وتُلحُّ عليه ، وهي

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٨٤.

جميعًا يمتَنُّ الله فيها على عباده بتنجيتهم من خطر طوفان وأمواج عاتية، بدَّل الله تعالى فيها خوفهم أمنًا ، وأحاطهم بعنايته ورحمته ، فإذا هم مستقرون في الفلك ، آمنون فيها ، وكأنَّها قد تحولت إلى مساكن على أرض يابسة ، تحميهم من أمواه تتقاذفها ، وأمواج تحيط بها ، وسيول تنهمر من فوقهم ، ومن ثمَّ كان الأدل على هذه المنة أنْ يُعبَّر بما يدل على تمكنهم واستقرارهم فيما سخر الله تعالى لهم ، وهذه نماذجها: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾(الأعراف: ٦٤) ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ (يونس: ٧٢) ، ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (الشعراء: ١١٩) ، ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ (يس: ٤١) ، ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾(هود: ٤٠) ، ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ (الحاقة: ١١) ، ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ (هود: ٤١).

وفي قصة الخضر مع موسى- عليهما السلام - ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ (الكهف: ٧١) ، جاءت «في» لتوحي بأنَّ الخرْقَ كان بعد استقرارهما في السفينة وإبحارها ، بدليل أنَّ موسى أنكر هذا العمل من الخضر؛ لأنه يتسبب في إغراق أهلها ، ولم يكن إنكاره الخرق لإتلافها ، ومعنى هذا أنَّ السفينة كانت بحيث يهدد الغرق مَنْ على ظهرها ، ولو قال: «ركبا السفينة» أو «على السفينة» ما دلَّ على ذلك.

وهي في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾(يونس: ٢٢) ، تومئ إلى أنَّ القوم كانوا مستقرين مطمئنين تجري بهم سفنهم في مياه هادئة ، وتدفعها ريح مواتية طيبة ، وتعلوهم فرحة غامرة ، فإذا قضاء

الله يفاجئهم ، ويذهب بأمنهم واستقرارهم ، فتتحول الرياح الطيبة إلى عواصف هوجاء ، والأمواه الهادئة أمواجًا هادرة ، وكأنَّ الله تعالى أخذهم بياتًا وهم نائمون.

أما المواطن التي أوثر فيها حرف الاستعلاء ، فقد أحصيتُ منها ستة ، موضعان اتحدت فيهما صورة النظم ، وجاء الحديث عن الحمل في الفلك تابعًا للحديث عن الحمل على ظهور الأنعام ، وهما قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢١ – ٢٢) ، وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾(غافر: ٧٩ – ٨٠).

والاستعلاء فيهما هو الأنسب معنى ، الأوفق لفظًا ، ذلك أنَّ الغرض في الموضعين هو التذكير بنعمة الله تعالى في خلق الأنعام ، وما أودعه فيها من منافع للإنسان ، شربًا من بطونها ، وأكلاً من لحومها ، وحملاً على ظهورها ، والأصل في الحمل أن يتعدى بـ«على»؛ لأنَّ المحمول يستعلي ظهر الحامل ، إلا إذا أريد الدلالة على أنَّ الحامل صار وعاءً للمحمول ، لغرض يستدعيه النظم كما سبق ، ثم جاء ذكر السفن تتميمًا وتبعًا ، والغرض من الحمل فيهما هو بيان نعمة الله تعالى في اعتلاء ظهورها والانتقال بها إلى حيث يريدون ، كما قال: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾(النحل: ٧)، فليس ثمَّة غرضٌ في أنَّ الأنعام والفلك صارت مستقرًّا لراكبيها وأمانًا لهم ، والمقام في بيان فوائد الأنعام والسفن من حمل الناس

وأمتعتهم.

هذا هو التناسب في المعنى. أما التناسب اللفظي والمزاوجة ففي التلاؤم بين الحمل على ظهور الأنعام ، والحمل على ظهور الفلك ، حيث لا يصحُّ أنْ يقال في شأن الأنعام: «وفيها وفي الفلك تحملون» ، لأنَّ الأنعام لا تصلح وعاءً للإنسان ، فلو أنَّ «على» و«في» يتساويان في الدخول على الفلك لكانت مراعاة الحسن اللفظي وحدها داعيًا لإيثار حرف الاستعلاء ، فما بالك وهو أدلُّ على الغرض وألصق بالمعنى!

والموضعان الثالث والرابع هما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(المؤمنون: ٢٨) ، وقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾(الزخرف: ١٢-١٣).

والاستواء هنا يعني الاستيلاء ، والأخذ بزمام المستولى عليه ، وكأنَّ الفلك والأنعام قد دانت بأمر الله لهم ، وذلَّلت ظهورها لركوبهم ، فصارت طَوْع بَنَانهم ، يدلُّك على ذلك قولُه بعد ذلك: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، فهي نعمة تذليل وتسخير ، فكانت «على» بدلالتها على الاستيلاء هي الأنسب لهذين الموضعين ، ولذا قال الراغب في فعل الاستواء: «ومتى عُدِّي بـ(على) اقتضى معنى الاستيلاء» (١).

والموضع الخامس قوله ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا

---

(١) المفردات ٢٥١.

ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾(القمر: ١١-١٤) ، والغرض فيه هو الدلالة على كمال القدرة الإلهية في إنجاء نوحٍ - عليه السلام - والإشارة إلى أنَّ السفينة وإنْ كانت سببًا ظاهرًا للنجاة ، فإنَّ الفاعل الحقيقي هو الله تعالى ، وإلا فالسفينة ماذا تفعل وسط طوفان هادر يطوقها من الأرض والسماء ، ولئنْ كانت قادرة على حمله فوق ماء يتفجَّر من الأرض ، فأنَّى لها أنْ تحميه من سماء تنهمر مياهها دون انقطاع أو فتور؟ ألا ترى كيف قلَّل الله من شأن السفينة حتى لا يعلق أحدٌ أسباب النَّجاة عليها ، فكنى عنها بما يُهوِّن من قَدْرها ، فلم يقل: حملناه في جارية ، أو في سفينة ، وإنَّما قال: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ، ملمحًا إلى أنها هي ذاتها محمولة بيد الله، فما هي إلا ألواح ومسامير ، ومن هذه المكونات ما لو أُفرد على صِغَره لما استقر على ظهر الماء ، وآية ذلك أنَّك تلقي بالمسمار الواحد في الماء فلا يستقر على سطحه ، فإذا كان الحامل ضعيفًا واهيًا ، والماء عظيمًا مدمرًا ، فالنَّجاة حينئذ هي فضل الله ورحمته. انظر كيف عقَّب الله ذلك بقوله ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، إدلالاً بكمال القدرة وبالغ الحفظ والكلاءة.

أما الموضع السادس ، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ (الإسراء:٧٠) ، فقد كشف الدكتور عبدالفتاح لاشين عن سر حرف الظرفية فيه بما لا مزيد عليه. قال: «فقد أعرض التعبير القرآني عن ذكر حرف الاستعلاء ، وهو (على) ، وعدل عنه إلى حرف الوعاء ، وهو (في) ، مع أنَّ الظاهر هو العلو على الأرض

والفلك.

والسبب في ذلك هو الإعلام بأنَّ حرف الوعاء أقْعدُ وأمْكنُ ها هنا من حرف الاستعلاء ، لأنَّ (على) تُشعر بالاستعلاء لا غير ، من غير تمكُّن واستقرار ، و(في) تُشعر ها هنا بالاستقرار والتمكُّن ، ومن حق ما يكون مستقرًّا فيه ، متمكنًا ، أنْ يكون مستعليًا له.

فلما كانت (في) تؤذن بالمعنيين آثرها وعدل إليها ، وأعرض عن (على) دلالة على المبالغة التي ذكرناها» [1].

ومن روائع النظم الكريم في وضع كل من حرفَي الظرفية والاستعلاء الموضع الذي لا ينهض به سواهما ، ما كشف عنه جار الله الزمخشريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(سبأ: ٢٤) ، قال: «فإن قلتَ: كيف خولف بين حرفي الجر الدلخلين على الحق والضلال؟ قلتُ: لأنَّ صاحب الحق كأنَّه مُستَعْلٍ على فرس جواد ، يركضه كيف شاء ، والضلال كأنَّه منغمس في ظلام مرتبك فيه ، لا يدرى أين يتوجه» [2].

«على» إذن تشير إلى عُلوِّ مقام المهتدين ، وإقبالهم على الهدى بمحض إرادتهم واختيارهم ، وتمكُّنهم من إدراك ما لا يراه غيرهم ، لانفساح مجال الرؤية أمام أبصارهم ، فلا حُجُبَ ولا حواجز ، وهم طوال الأعناق مرتفعو الهام ، سريعو الاستجابة والانتفاع بما يتراءى

---

(١) من أسرار التعبير في القرآن – حروف القرآن، ٩٩ – ١٠٠.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٨٩.

لهم ، أمَّا الضالون فهم مسلوبو الإرادة ، مسجونون في قفص أهوائهم ، يحيط بهم الضلال ، وتهوي بهم شهواتهم ، وتَسْفُل بهم غاياتهم ، إلى قاع مظلم ، يفتقدون فيه حرية الفكر ، ووضوح الرؤية ، يتخبطون في ظلام الكفر ، لا يدرون لهم وجهة ، ولا يعرفون لهم هدفًا. كل ذلك انعكاس لظِلال حرفين غُوير بينهما في نظم القرآن الكريم.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾(النجم: ١٠-١٢). يقول الألوسي: «وعُدِّي الفعل بـ(على) ، وكان حقه أنْ يُعدَّى بـ(في) ، لتضمينه معنى المغالبة ، فإنَّ المجادل والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم» [1].

وهذا أحد المواطن التي يُقحِم فيها تضمينُ الفعل معنى هو انعكاس لدلالة الحرف الذي تعدَّى به ، فالمراء ما هو إلا محاجَّة ومجادلة ، وقد سرى إليه هنا معنى المغالبة من طبيعة حرف الاستعلاء ، وما يوحي به من محاولة الخصم رفع صوته على من يجادله ، والتغلب عليه بكل ما يملكه من وسائل الإقناع حينًا ، والمغالطة أحيانًا ، بدليل أنه لو تعدَّى الفعل بحرف الوعاء ، فقيل: (أفتمارونه فيما يرى) ، لما كان فيه شيء من معنى المغالبة ، وبدلاً من أنْ يُجعل هذا غرضًا توخَّاه النظم من العدول عن تعدية الفعل بحرف الوعاء إلى حرف الاستعلاء ، قيل إنَّ الفعل مُضمَّن معنى المغالبة ، مع أنَّ المراء بحكم أصله المأخوذ منه يدل على الجدل المصحوب بالمداهنة والمصانعة ، لا على العنف والمغالبة ، لأنَّه مأخوذ من مَرْي الناقة ، وهو مسحُ ضرعها لاستدرار لبنها. وقد جاء

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٥٠.

في لسان العرب: «ابن الأنباري: في قولهم: مارى فلان فلانًا ، معناه: قد استخرج ما عنده من الكلام والحجة ، مأخوذ من قولهم: مريتُ الناقة: إذا مسحتُ ضرعها لتدر» [1].

فالمماراة في ذاتها ليست مصحوبة بالمغالبة ، وإنما سرى إليها هذا المعنى بحكم العدوى الناشئة من اتصاله بحرف الاستعلاء ، بدليل افتقاده في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾(الكهف: ٢٢) ، أي: «فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهرًا غير مُتعمَّق فيه ، وهو أنْ تقصَّ عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد ، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف في الرد عليهم» [2]. ولما كان المشركون قد استقبلوا ما قصَّه الرسول عليهم من حادث الإسراء بالتسفيه والتكذيب، ووصفه بأوصاف لا تليق بأدب المجادلة ، مستعلين عليه بكثرتهم ، محاولين إسكاته وتعجيزه ، عُدِّي الفعل بـــ«على» ، إشعارًا بأنَّها مماراة سفيه جاهل يبغي التغلب على خصمه بالقوة والقهر ، لا بالحجة والإقناع. وحسبُك تصويرًا لحُمقهم أنْ يماروا على ما رآه ولم يروه ، والمعروف أنَّ من شاهد حجة على من لم يشاهد ، وفي مجيء الفعل بصيغة المضارع (يرى) زيادةُ تجهيل وتسفيه لأحلامهم ، حيث يجادلونه فيما يراه واقعًا أمام عينيه وهم عُمْيٌ عنه ، وكأنَّه يقول لهم: متى كان الأعمى حجة على المبصر فيما يشاهده؟

وقريب من ذلك وقوع حرف الاستعلاء في قوله تعالى ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا

---

(١) لسان العرب ٧/ ٤١٨٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٧٩.

تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾(البقرة: ١٠٢) ، وهو أيضًا مما قيل فيه بتضمين الفعل المُعدَّى به. كما قيل إنَّه بمعنى حرف الوعاء ، لأنَّ «(تلا) يتعدَّى بـــ(على) ، إذا كان مُتعلَّقُها يُتلى عليه ، كقوله: يُتلى على زيد القرآن ، وليس المُلْك هنا بهذا المعنى ، لأنَّه ليس شخصًا يُتلى عليه، فلذلك زعم بعض النحويين أنَّ (على) تكون بمعنى (في) ، أي تتلو في ملك سليمان ، وقال أصحابنا: لا تكون (على) في معنى (في) ، بل هذا من التضمين في الفعل ، ضُمِّن (تتقول) فعُدِّي بـــ(على) ، لأنَّ (تقوَّل) تعدى بها» [١].

وقال الفراء: «تصلح (في) و(على) في مثل هذا الموضع ، تقول: أتيته في عهد سليمان ، وعلى عهده ، سواء» [٢].

ولا أحسب أنَّ بنا حاجةً إلى القول بتضمين الفعل معنى «تقوَّل» ، ولا إلى القول بأنَّ «على» بمعنى الظرفية ، لأنَّه حينئذ يكون الحرف الموضوع لهذا المعنى أساسًا أولى بموضعه ، ما لم يكن في العدول إليه ما يدل على معنى زائد ، وهو الدلالة على ما ألحقه الشياطين من ضرر بسُمعة سليمان ، والافتراء على مُلكه ، وتشويه حقائق التاريخ ، وما ألصقوه بهذا النبي من زيف وأباطيل ، في محاولة لطمس معالم الإعجاز الإلهي بتسخير الجن والإنس لسليمان ، وخلط خوارق القدرة الإلهية بأباطيل السحر ، وفتن المشعوذين ، و«على» تدل بطبيعة الاستعلاء فيها على الضرر ، وتحميل مجرورها أثقالاً حسيَّة أو معنويَّة ، كما في قوله

---

(١) البحر المحيط ١/ ٣٢٦.
(٢) معاني القرآن ١/ ٦٣.

تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا﴾.

فالاستعلاء هنا جارٍ على سبيل التجوُّز ، باعتبار أنَّ ما نُسب إلى سليمان وعهده ، بمثابة تحميله أوزارًا تسيء إلى مُلْكه ، وتضر به ، وتشوِّه معالمه ، وفيه إشارة خفية إلى أنَّ تزييف التاريخ ، وتشويه معالم الأمم ، خاصة ما يتعلق منها بوحي السماء ، إنَّما هو من فعل الشياطين وعبدة الطاغوت.

ومن لطيف ما جاء في القرآن مغايرًا فيه بين حرف الاستعلاء وحرف الوعاء قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(النحل: ٤٥-٤٧).

جِيء بـ«في» مع التقلب ، وبـ«على» مع التخوُّف. فلماذا لم يقل: في تقلبهم وفي تخوُّفهم ، أو على تقلبهم وعلى تخوُّفهم؟ وما السر وراء هذه المغايرة بين الحرفين؟ لقد بسط الألوسي القول في ذلك واستقصى ما قيل فيه ، وهو ما أنقله كاملاً: «وجِيء بـ(في) مع التقلب، وبـ(على) مع التخوُّف ، قيل: لأنَّ في التقلب حركتين ، فكان الشخص المتقلب بينهما ، ولا كذلك التخوف. وقيل: لما كان التقلب شاغلاً الإنسان بسائر جوارحه حتى كأنَّه محيط به وهو مظروف ، جِيء بـ(في) معه ، والتخوُّف أي المخافة إنَّما يقوم بعضو من أعضائه فقط ، وهو القلب المحيط به بدن الإنسان ، فلذا جِيء بـ(على) معه. وقيل: إن (على) بمعنى (مع) ، كما قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي يأخذهم مصاحبين لذلك ، ولما كان التخوُّف نفسه نوعًا من العذاب ، لما فيه من

تألم القلب ومشغولية الذهن ، وكان الأخذ مشيرًا إلى نوع آخر في العذاب أيضًا جِيء بـ(على) التي بمعنى (مع) ، ليكون المعنى: يعذبهم مع عذابهم ، ولم يعتبر ذلك مع التقلب مرادًا به الإقبال والإدبار في الأسفار والمتاجر ، مع أنَّه جاء (السفر قطعة من العذاب)؛ لأنَّهم لا يعدون ذلك عذابًا ، وفي القلب من هذا شيءٌ ، فتدرَّب وتأمَّل ، فأسرار كتاب الله لا تُحصى» (١).

هذه - لا شك - محاولات طيبة مثمرة لاستجلاء أسرار نظم الحروف في الكتاب العزيز ، ولعلي أحجل حول الرأي الأول حين أقول: إنَّ إيثار حرف الظرفية مع التقلُّب قُصِد به الإدلال على كمال القدرة الإلهية في الوصول بالانتقام إلى مَنْ يريد ، مهما بدا للمأخوذ أنَّه في كمال القدرة والقوة ، ذلك أنَّ التقلُّب يعني حركة الحياة التي أقبل عليها مقترفو السيئات ، مما يدلُّ على أنَّهم في كامل صحتهم وقوتهم ، وكمال سلطانهم وجبروتهم ، وهم في هذه الحال لا يستطيعون أنْ يفوتوا الله ويُعجزوه هربًا؛ لأنَّه معلومٌ أنَّ الذي له قدرة على الحركة والتنقل أصعب مراسًا على المتعقب له من العاجز المنتظر نزول الشر به ، ولذلك جاء تذييلاً له قوله : ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾. وحرف الظرفية أنسب لهذا الموضع بما يشير إليه من مظاهر القوة والمنَعة التي تحيط بهم وبحركتهم ، وكأنَّها تصنع حولهم سياجًا يحميهم من وصول المتعقب لهم، ويمنع نزول العقاب بهم ، فمهما أحاطت بهم هذه المظاهر فلن تمنع يد الله الباطشة من أنْ تمتدَّ إليهم لتأخذهم أخذَ عزيز مقتدر.

---

(١) روح المعاني ١٤/ ١٥٢ وما بعدها.

أما «على» في قوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ فإنَّ الاستعلاء فيها يدل على أنَّ الله زادهم عذابًا فوق عذاب الخوف وآلامه ، وهو بلاءٌ كان قد وقع بهم من قبل ، وأصابهم بأمراض الذعر والقلق ، وافتقاد الأمن والطمأنينة ، ثم جاء عقابه وأخذهم بما اقترفوه بلاءً فوق البلاء ، وعذابًا على عذاب ، وهذا المعنى أشار إليه البطليوسي حين ردَّ على ابن قتيبة قولَه بأنَّ «على» بمعنى «مع» في بيت الشماخ:

وَبُرْدَانِ مِنْ خَالٍ وَسَبْعُونَ دِرْهَمًا عَلَى ذَاكَ مَقْرُوظٌ مِنَ القِدِّ مَاعِزُ

قال البطليوسي: «والقول عندي في هذا البيت أنَّ (على) فيه على وجهها ، وإنَّما أراد من المبتاع أنْ يزيده على ما اشترط من الثمن جلدًا مقروظًا ، كما تقول: أبيعك هذه السلعة بكذا وكذا درهمًا ، وتزيدني على ذلك ثوبًا» [1].

* * *

«على» وكلمة المصاحبة

«على» حرفٌ كثير التصرُّف ، واسع الحركة ، يتيح للناظم والناثر ، بحقيقته ومجازه ، أنْ يعبِّر عن مقاصده المختلفة ، ويكشف عن مراميه وأهدافه تلميحًا أو تصريحًا ، وقد يدِقُّ في بعض مواضعه حتى يُظنَّ أنَّه خرج عن أصله وفارق معناه. «اعلم أن أصل (على) العُلوُّ على الشيء وإتيانه من فوقه ، كقولك: أشرفتُ على الجبل ، ثم يعرض فيها إشكالٌ في بعض مواضعها التي تتصرَّف فيها ، فيظنُّ الضعيف في هذه الصناعة أنَّها قد فارقت معناها. فمن ذلك قول القائل: زرته على

---

(١) الاقتضاب ٢/ ٢٩٠ ــ ٢٩١.

مرضي ، وأعطيته على أنْ شتمني ، وإنَّما جاز استعمال (على) ها هنا؛ لأنَّ المرض من شأنه أنْ يمنع من الزيارة ، وكذلك الشتم يمنع المشتوم من أنْ يعطي شاتمَه شيئًا ، والمنع قهر للممنوع واستيلاء عليه ، فهي إذن لم تخرج عن أصلها بأكثر من أنَّ الشيء المعقول شُبِّه بالشيء المحسوس ، فخفي ذلك على مَنْ لا دُرْبة له في المجـــازات والاستعارات» (١).

بهذا النص يفسر لنا البطليوسي كثيرًا من المواضع التي قيل فيها إنَّ «على» خلعت معنى الاستعلاء ، وارتدت ثوب المصاحبة ، مفارقةً أصلَها ، وهو ما تردد كثيرًا في كتب النُّحاة وعلى ألسنة المفسرين.

من ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾(إبراهيم: ٣٩).

قال الزمخشريُّ: «(على) في قوله ﴿ عَلَى ٱلْكِبَرِ ﴾ بمعنى (مع) ، كقوله:

إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الكَتِفُ» (٢)

وعليه فإنَّ «على» تكون قد خرجت عن معناها إلى معنى المصاحبة ، وهو رأي الكوفيين الذين يرون أنَّ للحرف عدةَ معانٍ وضعية ، وأنَّ حروف الخفض ينوب بعضُها عن بعضٍ في أداء معانيها المشهورة ، ولا يقول به البصريون إلا على سبيل الشذوذ ، لذلك

---

(١) السابق ٢/ ٢٨٢ ــ ٢٨٣.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٨١.

عارضه أبوحيان ذاهبًا إلى أنَّها على أصلها من الاستعلاء ، ولكنه على سبيل المجاز. و« ﴿ عَلَى ٱلْكِبَرِ ﴾ في موضع الحال ، كأنَّه قال: وأنا كبير، و(على) على بابها من الاستعلاء لكنها مجاز ، إذ الكِبَر معنى لا جرم يتكوَّن ، وأنَّه لمَّا أسنَّ وكبر صار مستعليًا على الكِبَر» [1].

وأيَّد الألوسي ما ذهب إليه أبوحيان ، غير أنَّه نَقَل عن بعضهم اعتراضًا بأنَّ الكِبَر بهذا المعنى هو الذي يستعلي على صاحبه: «ويصح جَعْل (على) بمعناه الأصلي ، والاستعلاء مجازي كما في البجر ، ومعنى استعلائه على الكِبَر أنَّه وصل غايته ، فكأنَّه تجاوزه وعلا ظهره، كما يقال: (على رأس السنة) ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى. وقال بعضهم: لو كانت للاستعلاء لكان الأنسب جعل الكِبَر مستعليًا عليه، كما في قولهم: (عليَّ دينٌ) ، وقوله :﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ ﴾ ، بل الكِبَر أولى بالاستعلاء منهما ، حيث يظهر أثره في الرأس» [2].

وأحسب أنَّ كل هذه التأويلات لم تستطع إبراز الغرض من إيقاع حرف الاستعلاء فيما يظهر أنَّه موقع «مع» ، فإذا كان الغرض هو الدلالة على المصاحبة ، فلم عدل عن الكلمة الموضوعة أصالةً لهذا المعنى؟ وإذا كانت «على» للاستعلاء المجازي إشارة إلى أن الكِبَر تمكَّن منه وعلا ظهره ، فلِمَ عكس النظم ليكون هو مستعليًا على الكِبَر؟

إنَّ ما أقوله – استلهامًا لما نقلتُه عن البطليوسي – هو أنَّ الكِبَر من شأنه أنْ يمنع بمقتضى العادة من الإنجاب ، وهو سببٌ في الظاهر قاهرٌ متغلِّب ، إلا أنَّ الله تعالى شاء أنْ يخرق ما جرت به العادة ، ويقهر ما

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٣٤.
(٢) روح المعاني ١٣/ ٢٤١ – ٢٤٢.

خلق من أسباب ، إدلالاً على عظيم قدرته وإطلاق يده فيما خلق ، وتكريمًا لمن خُرِقت من أجله النواميس ، وحُطِّمت بسببه ظواهر العادات، ممَّا جعل إبراهيم يلهج لسانُه ثناءً على الله وشكرًا له.

فالاستعلاء المجازي هو استعلاء قدرة الخالق على الكِبَر الذي هو مانعٌ قاهرٌ في مجرى العادة من حصول الولد ، فلو قيل: «مع الكبر» ، لما أوحى بمعنى الاستيلاء على الأسباب وقهرها كما يوحي به حرف الاستعلاء.

وفي قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

ذكر الزركشي أنَّ «على» في قوله ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ للمصاحبة [١].

وجرى على ذلك كثيرٌ من المفسرين دون أنْ يذكروا سبب العدول إلى حرف الاستعلاء.

وأقول إنَّ «على» لم تفارق دلالتَها على الاستعلاء ، وإنَّها أدلُّ في مدح الأبرار من كلمة المصاحبة ، إذ إنَّ الآية ترسم صورة للأبرار المتقين الذين قَرَنُوا صالح العمل بصحيح الاعتقاد ، وقد بدأتْ بوصفهم بالإذعان القلبي المتمثل في الإيمان بالله ورسله ، وما أُنزل عليهم من كتب ، وما حمل إليهم وحي السماء من الملائكة ، وما يتبع ذلك من

(١) انظر البرهان ٤/ ٢٨٤.

تصديق بالحساب في يومٍ أعدَّه الله لذلك ، وهذا ما لا يصح عملٌ إلا به ، ثم بدأتْ من الأعمال ببذل المال ، وهو الدليل العملي الأدلُّ على صدق الإيمان ، لأنَّ المال شقيق الروح ، ولا يغلب المال في نفس من يتعلقون به ويقعون أسرى حبه ، إلا حُبٌّ أكبر منه ، فجاءت «على» مُشعرة باستعلاء حب الله في نفوسهم على حب المال ، وتغلبهم على شهواتهم ، وقهرهم لأسباب الخوف من الفقر ، وارتفاعهم فوق شح أنفسهم ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ، ولعل ابن عباس – رضى الله عنهما – كان يلمح إلى هذا الغرض حين قال: «البِرُّ بعد الإيمان إعطاءُ المال على حُبِّه ، على قِلَّته وشهوتِه» [1].

ولنفس الغرض جاءت «على» في قوله تعالى وصفًا للأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: ٨)؛ مدحًا لهم بكمال الإيثار في بذل ما بأيديهم من طعام هم في أمسِّ الحاجة إليه ، متعالين على هوى النفس ، قاهرين لشهوة البطن ، في سبيل غاية أسْمَى وهدف أنبل ، وهو رضا الله تعالى ، ونيلُ ما عنده. فهي على أصلها من الاستعلاء المجازي ، عُلُوًا على رغبات النفس وقهرًا لشهواتها. وذلك لون من التتميم البديع [2] ، الذي ينشر جوًّا من المبالغة في بذل ما يملكه الإنسان ، وتضنُّ به نفسُه ، ابتغاء مرضاة الله.

وللاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ١٩.
(٢) انظر الإيضاح ببغية الإيضاح ٢/ ١٤٦.

لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(الرعد: ٦) دلالةٌ خفيَّة تتلاشى مع القول بأنَّ «على» بمعنى «مع» في قوله ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [١].

ذلك أنَّ المغفرة لا تكون إلا عن ذنب ، فإذا قيل إنَّ المعني: «يغفر لهم مع ظلمهم أنفسهم باكتساب الذنوب» [٢] ، فإنَّ زيادة ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ حينئذ تشبه تكرارًا لمعنى مفهوم ممَّا قبلها ، وهو ما يُفقد حرف الاستعلاء دلالته على فيض الرحمة الإلهية ، وغلبتها على موجبات غضبه سبحانه ، دليلاً على سَبْق الرحمة ، وإلماحًا إلى لطف الله تعالى بعباده ، وغلبة الرجاء على الخوف. الاستعلاء هنا يجسِّد العلاقة بين الرحمة والغضب ، والمغفرة والعقاب ، ويغلب سوابق الرحمة على موجبات الانتقام ، ولولا قوله ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ لتساوت رحمة الله مع غضبه ، وعفوه ومؤاخذته ، ولهلك الإنسان حينئذ بعدل الله بعد أنْ يتوارى فضله. فقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يقابله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ، فأين سبق الرحمة وغلبة الرجاء؟ إنَّه في قوله ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ ، بما يوحي به حرف الاستعلاء من تغلُّب المغفرة على الذنوب ، وقهر العفو للعقاب ، لذلك «قال ابن عباس: ليس في القرآن أرجى من هذه الآية» [٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ

---

(١) انظر البرهان ٤/ ٢٨٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٦٦.
(٣) جواهر الحسان في تفسير القرآن ٢/ ٢٦٥.

﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ (النحل: ٥٨-٥٩). قال الألوسي: «أيتركه ويُربِّيه (على هون) ، أي ذُل، والجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل ، ولذا قال ابن عباس – رضى الله تعالى عنهما – : معناه: أيمسكه مع رضاه بهوان نفسه ، وعلى رغم أنفه» (١).

ما قاله ابن عباس ، في اعتقادي ، ليس إلا كشفًا عن المعنى ، وتفسيرًا للمراد من النظم ، ولا يستوجب أن تكون «على» بمعنى «مع»، على أنَّ الرضي أرجع هذه المعيَّة إلى معنى الاستعلاء ، فقال: «وقولهم: فلان على جلالته يقول كذا ، أي معها ، وكأنَّ المعنى أنَّه يلزمها لزوم الراكب لمركوبه ، من قولهم: ركبته الديون ، أي لزمته» (٢).

وهو تأويل لا يذهب بعيدًا عن استعارة الحروف كما أجراها البيانيون في مثل قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ ، مع احتفاظ الحرف بمعناه ، لكن هذا لا يفسر اختصاص هذا الموضع بحرف الاستعلاء وترك ما هو أصل في الدلالة على الملازمة والمصاحبة وهو «مع».

«على» جيء بها لإبراز الصراع المحتدم داخل نفس الوالد بين عاطفة الأبوة التي تدفع الأب إلى الإمساك بوليده ، وبين ما يجرُّه هذا الإمساك عليه من ذُلٍّ وضَعَة ، فإنْ هو تغلَّبت فيه عاطفة الأبوة وتحمَّل تبعاتها كان ذلك استعلاءً لهذه العاطفة ، ومغالبةً لما يترتب عليها من ذُلٍّ وانكسار نفس ، وإنْ هو آثر السلامة ولم يحمل نفسه على أشق الأمرين

---

(١) روح المعاني ١٤/ ١٦٩.
(٢) شرح الكافية ٢/ ٣١٨.

أسرع بدس فلذة كبده في التراب ، فالاستعلاء في الآية مجاز كاشف عن خلجات النفس وما تعانيه من مشاعر حادة متناقضة وحيرة بالغة. وهذا الحرف ممتلئ بدلالته على المشاق والهموم بما تخلعه على النفس من أوزرار وأثقال ، على حد ما صرَّح بن ابن جني في قوله: «وذلك أنه قد يستعمل (على) في الأفعال الشاقة المستثقلة ، على قول من يقول: قد سرنا عشرًا ، وبقيتْ علينا ليلتان ، وقد حفظتُ القرآن وبقيتْ عليَّ منه سورتان ، وقد صُمْنا عشرين من الشهر ، وبقي علينا عشر ، وكذلك يقال في الاعتداد على الإنسان بذنوبه وقبيح أفعاله: قد أخرب عليَّ ضيعتي ، وموَّت عليَّ عواملي ، وأبطل عليَّ انتفاعي» [1].

«على» في قوله ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ إذن تُشعر بمغالبته لتبعات الإمساك وتعاليه على موجباته من ذُلِّ النفس وانكسارها وليست للمصاحبة كما قيل.

وتأمَّل حرف الاستعلاء ، وكيف جاء كحَبَّة في عقد نظمها مع حبَّات مماثلة في سلك واحد في قوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾(الجاثية: ٢٣).

لا شكَّ أنَّك تُحس جمال التعانق ، وروعة الانسجام بين حروف الاستعلاء الثلاثة ، وكيف تعاونت جميعها في رسم صورة القدرة الإلهية النافذة والإرادة العليا الغالبة ، وهي تطمس رؤي البصر والبصيرة ، فإذا العلمُ لا يفلح في إضاءة أقطار نَفْس شاء الله لها أنْ تعيش في ظلامها ،

---

(١) الخصائص ٢/ ٢٧٠.

وإذا السمع لا ينفذ منه صوت الحق ، وإذا القلب مختوم عليه لا يتسلل إليه شعاع من نور الإيمان.

حروف الاستعلاء ينتظمها خيط دقيق يعبِّر عن غلبة إرادة الله ، وعلو مشيئته ، حتى عجزت كل وسائل الإدراك مع صحتها وسلامتها عن التفلُّت من قدر الله ، فهي أشبه بأسلحة فلَّها الله فلم تُجْدِ على صاحبها نفعًا ، فكيف يقال إن «على» من قوله «على علم» بمعنى «مع»، والنظم ناطق بسيف القضاء الغالب ، وقد سلب منه الهداية رغم كل ما يملك من مقوماتها متمثلة في العلم وصحة الحواس.

«على» هنا تجسيد لغلبة المشيئة ، ونفاذ الإرادة العليا واستعلائها فوق الأسباب وظواهرها ، وما يملكه الإنسان من علم لا يحيطه الله ولا يباركه.

* * *

« على » وحرف الإلصاق

من المواطن التي يبدو فيها إعجاز النظم القرآني في اختيار الحروف ما يُظنُّ فيه ، لأول وهلة ، أنَّ «على» تؤدي ما تؤديه الباء في موضعها ، كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾(التوبة: ٢٥).

فسَّر أبوحيان ضيق الأرض على المسلمين بقوله: «أي: ضاقت بكم الأرض مع كونها رحبة واسعة ، لشدة الحال عليهم وصعوبتها ، كأنَّهم لا يجدون مكانًا يستصلحونه للهرب والنجاة ، لفرط ما لحقهم من

الرعب ، فكأنَّها ضاقت عليهم» [1].

الفعل «ضاق» يتعدَّى بالباء كثيرًا ، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ (هود: ٧٧) ، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (الحجر: ٩٧) ، فلماذا أوثر حرف الاستعلاء في آية التوبة السابقة ، وفي قوله من نفس السورة: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ (التوبة: ١١٨)؟

في تأمُّل أغراض النظم ودلالات تراكيبه ما يجيب على هذا التساؤل ، حيث ضاقت بهم الدنيا ، ولم يجدوا فيها ملجأ ولا مهربًا ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وكان الأحرى أن يقال: «ضاقت بهم» ، كما يقال: «ضاق البيت بأهله» ، إذا لم يتسع لهم ، ومنه: «ضاق بهم ذرعًا»، أي أنَّ طاقته لم تعد قادرة على تحمُّلهم ، ونفسه لم تتسع للمزيد من أفعالهم ، وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ كنى بضيق الصدر عن حزنه ، وكأنَّ صدره قد امتلأ بأقوالهم الآثمة ، فلم يعد يتسع لمزيد منها.

وهذا ما لا يهدف إليه النظم في آيتي التوبة ، حيث تُصوِّر الأولى ما لحق بالمسلمين نتيجة غرورهم بكثرتهم ، فأطبق عليهم العدو ، وشتَّت جَمْعهم ، وشلَّ تفكيرهم ، فلم يعودوا يقوون على الخروج من محنتهم لولا تدارك الله لهم بلطفه ، فجاء قوله : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٤.

﴿ٱلْأَرْضُ﴾ تصويرًا لشدَّة ما لاقوه ، حتى يُخيَّلَ إليك أنَّ الأرض صارت عدواً يحاصرهم ، ويكتم على أنفاسهم ، فلا يستطيعون منه فكاكًا، وحسبُك بيانًا لشدَّة وقْع هذه المفاجأة على نفوس المسلمين من إحساسهم بأنَّ الأرض تحارب مع عدوهم ، وتجثم على صدورهم ، وليس مراد الآية أنَّهم لم يجدوا ملجأً أو مهربًا ، بدليل أنَّ الله قال بعد ذلك ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ، مما يعني أنَّهم وجدوا ملاذًا من الأرض خلفهم يهربون إليه.

وذلك ما قصدت إليه الآية الثانية من سورة التوبة تصويرًا لأحوال نفوس المُخلَّفين الثلاثة ، بعد أنْ قاطعهم المسلمون ، وحاصرتهم الوحدة في بيوتهم ، بل وصل بهم الأمر إلى حَدِّ مقاطعة أزواجهم وأبنائهم لهم ، حتى صاروا وكأنَّهم يعيشون في عالم كُلُّ ما فيه حربٌ عليهم ، وإذا الأرض نفسها تؤدي دورها في محاصرتهم ، والتضييق عليهم ، وكتم أنفاسهم ، وتصل المبالغة إلى ذروتها حين تُشنُّ عليهم حربٌ من داخلهم، فإذا بأنفسهم تشارك الأرض والناس تضييقًا عليهم ومحاصرةً لهم. أهي حرب الضمير وحساب النَّفْس؟ نعم. وما أقساه من حساب وأشدَّه حين يجيء للإنسان من داخله ، فلا يستطيع التفلُّت منه ، ولا ردَّه عنه.

فهل يمكن أنْ ينهض بهذه المعاني ، ويشي بهذه الأغراض ، حرفٌ غير حرف الاستعلاء؟ وهل تجد ما وجدت لو جاء النظم هكذا: «وضاقت بهم الأرض بما رحبت وضاقت بهم أنفسهم»؟

ومما قيل فيه إنَّ «على» بمعنى الباء قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (التكوير: ١٩ -٢٤).

قال الفراء: «وقوله ﴿ وَمَاهُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ ، حدَّثنا أبوالعباس قال: حدَّثنا محمد قال: حدَّثنا الفراء قال: حدَّثني قيس بن الربيع عن عاصم أبي النجود عن زر بن حبيش قال: أنتم تقرأون (بضنين) ببخيل ، ونحن نقرأ (بظنين) بمتهم ، وقرأ عاصم وأهل الحجاز وزيد بن ثابت (بضنين) وهو حسن. يقول: يأتيه غيب السماء وهو منفوسٌ فيه ، فلا يضنُّ به عنكم ، فلو كان مكان (على) (عن) صلح ، أو الباء ، كما تقول: ما هو بضنين بالغيب ، والذين قالوا (بظنين) احتجُّوا بأن (على) تقوِّي قولهم ، كما تقول: ما أنت على فلان بمتهم» [1].

وغريبٌ هذا التناقض بين الفراء والرماني ، حيث يجعل الفراء حرف الاستعلاء هو الأصل في تعدية من قرأ «بظنين» ، حتى اتخذه أصحاب هذه القراءة دليلاً لهم ، وهو بمعنى الباء في قراءة من قرأ «بضنين» بالضاد ، على حين يرى الرماني أنَّه بمعنى الباء في الأولى، وعلى أصله في الثانية ، وهذا ما قاله «وقد وضعوها – يعني (على) – موضع الباء. وعلى ذلك تأوَّلوا قراءة من قرأ (وما هو على الغيب بظنين) بالظاء ، أي بالغيب ، لأنَّه لا يُقال: ظننت عليه بكذا ، أي اتَّهمته، فأمَّا من قرأ «بضنين» بالضاد فـ(على) في موضعها ، لأنَّه يقال: ضننت عليه بكذا ، أي بخلت» [2] .

والقول بأنَّ تعدِّي فعل الضنِّ بالباء هو الأصل ، وتعدِّيه بـ«على» يستلزم أنْ تكون دالَّةً على معنى الباء ، هو ما لا نقبله في نظم القرآن الكريم ، لأنَّه يجعل العدول إلى حرف الاستعلاء عاريًا عن غرض

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٢٤٢ – ٢٤٣.
(٢) معاني الحروف للرماني ١٠٨.

خاصٌ به.

والمتأمّل للسياق يجد فيه تأكيدًا على صدق ما جاء به الرسول – عليه السلام – مُبلِّغًا عن ربه ، ونفي مزاعم المشركين وادعائهم أنَّ القرآن مفترى على الله ، أو أنَّه قول شاعر أو كاهن ، ممَّا يقطع الصلة بينه وبين وحي السماء ، لذا كان وصف جبريل – عليه السلام – وهو الواسطة بين الله ورسوله في نقل المُوحَى به بصفات تؤكد مكانته وأمانته في إيصال ما أوحى الله إلى نبيه ، ثم جاء وصف الرسول – وهو الذي انتهى إليه خبر السماء – بصفات تؤكد صدقه فيما يُبلِّغ عن ربه ، وأمانته فيما يؤديه عنه ، نفيًا لتهمة الافتراء على الله ، وليس ثمة ادِّعاءٌ من المشركين بأنَّ الرسول يحجب عنهم شيئًا من الوحي ، ويبخل به عليهم ، لأنَّهم أساسًا لا يؤمنون به قولاً من عند الله ، فلا ضرورة لنفي شيء لم يدَّعوه ، حتى يخفي الله ذلك عن رسوله ويقسم عليه. فتتاسق النظم وتجاوبه في أداء ما يهدف إليه هو الذي استدعى «على» دالةً على أنَّ الرسول لا يبخل بنفسه وجهده على الوحي ، ولا يَفْتُر في تبليغ ما أُمر به ، فالغيب هو المبخول عليه ، والمبخول به هو جهد الرسول وطاقته ، وذلك ما نُفي عنه ، إيماءً إلى أنَّه – عليه السلام – ماضٍ في دعوته لا يثنيه عنها أراجيف المشركين ومزاعمهم.

أما قراءة «بظنين» فإنَّ «على» معها توحي بالتحامل والافتراء عليه والتقوُّل ، كما قال ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ ، لذلك كان نفيه عن رسول الله ردًّا على قولهم إنَّه افتراه على ربه.

ومما التبس فيه حرف الاستعلاء بحرف الإلصاق قوله تعالى على لسان موسى – عليه السلام – خطابًا لفرعون ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي

رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(الأعراف: ١٠٤ – ١٠٥).

قال الأخفش: «وقال بعضهم: (عليٌّ أن لا أقول) ، والأُولَى أحسنُهما عندنا ، أراد: «واجبٌ عليَّ أن لا أقول» ، والأُخرى: «أنا حقيق على أن لا أقول على الله» ، يريد: بأن لا أقول على الله ، كما قال: ﴿ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ في معنى: على كل صراط توعدون» (١).

وهذا الذي ذهب إليه الأخفش من تبادل «الباء» و«على» موقعيهما جارٍ على مذهب الكوفيين ، من القول بنيابة حروف الجر بعضها عن بعض. ومن لم يعجبه هذا المذهب فرَّ منه إلى التضمين ، كما قال السيوطي: «ضُمِّن (حقيق) معنى (حريص) ، ليفيد أنَّه محقوق بقول الحق وحريص عليه» (٢) .

وأحسن ما قيل في تفسير دخول حرف الاستعلاء بما يبقيه على أصله ، ويكشف سر النظم في إيثاره بهذا الموضع دون الباء ، وجهٌ حكاه الزمخشريُّ بعد استقصاء آراء العلماء واستحسنه ، ذاهبًا إلى أنَّه الأدخل في نكت القرآن ، وهو كما قال ولا مزيد عليه: «وفي المشهورة إشكال لا يخلو من وجوه: أحدها أنْ تكون مما يُقلَب من الكلام لأمْن الإلباس ، كقوله:

وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ

---

(١) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٣٠٧.
(٢) معترك الأقران ١/ ٢٦٣.

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح ، و(حقيق عليَّ أن لا أقول) ، وهي قراءة نافع. والثاني أنَّ ما لزمك فقد لزمته ، فلما كان قول الحق حقيقًا عليه ، كان هو حقيقًا على قول الحق ، أي لازمًا له. والثالث: أنْ يُضمَّن (حقيق) معنى (حريص) ، كما ضُمِّن (هيجني) معنى (ذكرني) في بيت الكتاب. والرابع ، وهو الأوجه والأدخل في نكت القرآن ، أنْ يغرق موسى في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام ، لاسيما وقد رُوي أنَّ عدو الله فرعون قال له ، لما قال: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . كذبت ، فيقول: أنا حقيق عليَّ قول الحق ، أي: واجب عليَّ قول الحق أنْ أكون أنا قائله ، والقائم به ، ولا يرضى إلا بمثلي ناطقًا به» [1].

فالمقام مقام تكذيب من فرعون ، وهو يقتضي المبالغة في الرد عليه بما يثبت صدق موسى ، ممَّا استدعى معه أنْ يقول له ما معناه: إذا لم أكن أنا الذي يقول الحق فمَنْ يقوله إذن؟

إنَّه نفس الداعي الذي جعل الرسول – عليه السلام – يقول ، ردًا على الأعرابيِّ الذي طالبه بالعدل في القسمة: «ومَنْ يعدل إن لم أعدل» [2].

وفي «على» ، إلى جانب ما قاله الزمخشريُّ ، إيحاءٌ بأنَّ موسى حادبٌ على الحق ، وصيٌّ عليه من قِبَل ربه ، يدافع عنه ، ويذود عن حياضه ، وكأنَّه يقول: أنا راعي الحق ، والمحافظ عليه ، فكيف يصدر مني ما يُضيِّعه ويضرُّ به؟

* * *

(١) الكشاف ٢/ ١٠٠ – ١٠١.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٧/ ١٦٥.

« على » وحرف الاختصاص

قد يبدو غريبًا أنْ يلتبس معنى «على» بمعنى اللام ، وهما نقيضان فيما جرى به لسان العرب ، من استخدام اللام فيما يعود بالنفع ، و«على» فيما يجلب الضر ، انطلاقًا من معنى الاختصاص والملك والاستحقاق في اللام ، ومن معنى العلو على الشيء والاستيلاء عليه والقهر له في «على» ، ومن ثم قوبل بينهما في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(البقرة: ٢٨٦) ، وقوله عز وجل: ﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (الإسراء: ١٥) ، وقول الشاعر:

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَى
وَأَخْلُصَ مِنْهُ لا عَلَيَّ وَلا لِيَا

ومن طبيعة هذا الاستعمال في لغة العرب علَّل الزمخشريُّ دخول «على» في قوله تعالى خطابًا لنوح عليه السلام: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ (المؤمنون: ٢٧). قال جار الله: «جِيء بـ(على) مع سبق الضارِّ ، كما جِيء باللام مع سبق النافع. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ونحوه قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ، وقول عمر – رضى الله

عنه – : ليتها كانت كفافًا لا عليَّ ولا لي» [1].

إلا أنَّ هذا قد خُولف كثيرًا في نظم القرآن الكريم ، ممَّا يعتبر خروجًا على ظاهر ما تقتضيه مواقع الحروف ، وهو ما يتطلب البحث عن دواعيه وأغراضه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٥٤) ، ظاهر الكلام يقتضي المقابلة بين «على» واللام ، كما قوبل بين العزة والذلة ، فيقال: أعزة على الكافرين ، أذلة للمؤمنين ، كما قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾(الإسراء: ٢٤) ، فما الغرض من الاستعلاء فيه؟

لمَّا كان الذُّلُّ يحمل معنى قهر الذليل واستكانته – وهو ما لا يليق بالمسلم أنْ يتصف به إلا أنْ يعطيه بنفسه لنفسه ، خضوعًا لله تعالى ، وتقرُّبًا إليه ، أو عطفًا على إخوانه من المؤمنين – جاء حرف الاستعلاء مشيرًا إلى أنَّه ذُلٌّ محمود يزيد قدر المؤمنين شرفًا ، ويكسبه رفعة وسموًّا؛ لأنَّه تذلُّل القوي الرفيع الشأن ، لمن هو دونه قدرًا ومكانة ، لا ذُلُّ الضعيف المستكين المقهور ، ولو كان المذل مؤمنًا ، كيف والله يقول ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(المنافقون: ٨) ، فلو تعدَّت «أذلة» باللام لأشعرت بالانقياد والاستسلام للمؤمنين ، ورفض ذلك مع الكافرين، وليس ذلك ما قصد إليه النظم؛ لأنَّ الذِّلة التي يعنيها هي رحمة القوي بالضعيف ، وعطفه وحدبه عليه ، وهو ما لا يؤدَّى بغير حرف الاستعلاء.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠.

أما قوله ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ فإنَّ المراد: «كن كالمقهور لهما» [1] المنقاد لأوامرهما ، وليس في الذل للأبوين ذم ، ولا في الخضوع لهما عيب؛ لأنَّ طاعتهما من طاعة الله ، كما أنَّه ليس للاستعلاء عليهما مكان ، وهما منبع شرفه ومصدر رفعته.

ثم إنَّ هاهنا غرضًا يهمس به سياق الآيات ، حيث سبق هذه الآية تحذير المؤمنين من موالاة الكافرين حتى لا تؤدي بهم إلى التبعية لهم ، وفقدان شخصيتهم ، فينتهي أمرهم إلى الذلة والخضوع لغيرهم ، ثم جاءت هذه الآية دعوة إلى موالاة المؤمنين ، وجاءت «على» إشعارًا بأنَّ موالاة المؤمن هي سبيل العزة والأنفة ، ولن تقود أبدًا إلى الذل والعبودية ، كما هي مع الكافرين ، وهذا هو السياق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾(المائدة: ٥١-٥٢).

وقد ذكر الزمخشريُّ وجهين لمجيء حرف الاستعلاء دون اللام فقال: «فإنْ قلتَ: هلا قيل: أذلة للمؤمنين ، أعزة على الكافرين؟ قلتُ: فيه وجهان ، أحدهما أنْ يُضمَّن الذل معنى الحُنُوِّ والعطف ، كأنَّه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلُّل والتواضع. والثاني أنَّهم مع شرفهم وعُلُوِّ طبقهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ونحوه قوله عز وجل ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ » [2].

---

(١) المفردات ١٨١.
(٢) الكشاف ١/ ٦٢٣.

والوجه الثاني – فيما أرى – هو الذي يستبطن سر النظم ، ويكشف عن وجه العدول إلى حرف الاستعلاء.

ومع وضوح هذا الوجه في كونه تفسيرًا لمعنى الحرف ، وسر تعدِّي الذلة به ، فإنَّه قد تعرض للجدل والتأويل ، وما غرض الزمخشريِّ منه؟ وهل هو وجه آخر غير التضمين بجعله استعارة في الحرف؟ أم أنَّه تضمين آخر بوصف آخر ، بحيث يُضمَّن الذل معنى الفضل والعُلُوِّ ، مما يضيِّع نكتة اختصاص الحرف بالموقع الذي من شأن غيره أن يقع فيه. وهذا مثل ممَّا دار حول كلام الكشاف. يقول الألوسي: «وكان الظاهر أنْ يقال: أذلة للمؤمنين ، كما يقال تذلل له ، ولا يقال: تذلل عليه ، للمنافاة بين التذلل والعُلُوِّ ، لكنه عُدِّي بـ(على) لتضمينه معنى العطف والحُنُوِّ المتعدَّى بها ، وقيل للتنبيه على أنَّهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ولعل المراد بذلك أنه استعيرت (على) لمعنى اللام ، ليؤذن بأنهم غلبوا غيرهم من المؤمنين في التواضع حتى علوهم بهذه الصفة ، لكن في استفادة هذا من ذاك خفاء ، وكون المراد به أنَّه ضُمِّن الوصف معنى الفضل والعلو – يعنى أنَّ كونهم أذلة ليس لأجل كونهم أذلاء في أنفسهم ، بل لإرادة أن يضموا إلى علو منصبهم وشرفهم فضيلة التواضع – لا يخفى ما فيه»[1].

ونتوقف هنا أمام أمرين:

الأول: أنَّ كلام الزمخشريِّ ليس فيه ما يدلُّ على الاستعارة في الحرف ، ولم يكن مشغولاً بذلك قدر انشغاله ببيان نكتة العدول إلى حرف

---

(١) روح المعاني ٦/ ١٦٣.

الاستعلاء ، وهو الأمر الذي يجب أن يُعنى به الباحثون عن أسرار الإعجاز في القرآن.

والثاني: أنَّ استعارة «على» لمعنى اللام هي من قبيل التكلُّف ، وإخضاع النظم لقاعدة يصح معها استعمال الحرف مكان الآخر ، فإذا لم يكن ذلك بالتضمين فليكن بالاستعارة مهما خالف ذلك روح الاستعارة وغرضها. فمعنى اللام نقيض لمعنى حرف الاستعلاء ، فكيف يُستعار أحدهما للآخر والاستعارة تقتضي المشابهة؟ اللهم إلا أنْ يكون ذلك على سبيل التهكم ، وليس هذا موطنه.

فما أغنانا عن ذلك لو قلنا إنَّه مخالفة لمقتضى الظاهر لغرضٍ استدعاه النظم ، ثم ننصرف بعد ذلك إلى البحث عن سر المخالفة!

وجاءت «على» في شهادة الرسول على أمته ، وكان الظاهر أن تقع اللام موقعها باعتبارها شهادة لها لا عليها ، في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(البقرة: ١٤٣) ، فانبرى المفسرون للبحث عن سر ما يُعتقد أنَّه مخالفة للظاهر. قال صاحب الكشاف: «فإنْ قلتَ: فهلا قيل: لكم شهيدًا ، وشهادته لهم لا عليهم؟ قلتُ: لمَّا كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ - ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾»[1].

وهذا الذي ذكره الزمخشريُّ يفسر صحة تعدِّي فعل الشهادة بـ«على» ، ولكنَّه لا يفسر سرَّ اختصاص هذا الموضع بحرف

---

(١) الكشاف ١/ ٣١٧ ـ ٣١٨.

الاستعلاء الذي من شأنه أنْ يدلَّ على أنَّ الشهادة فيها إضرارٌ بالمشهود عليه ، كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور: ٢٤) ، والزمخشريُّ نفسه في أساس البلاغة يقول: «والله يشهد لي ولا أستشهده كاذبًا ، وهو من أهل المشهد والمشاهد ، وشهدت بكذا ، وشهدت عليه ، وأشهدني فـــلان ، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾»[1].

فعدَّى شهادة الله باللام في الموطن الذي تكون الشهادة منه نفعًا للمشهود ، لا مؤاخذة عليه ، مع أنَّ رقابته وهيمنته لا تنفكَّان أبدًا.

وأضاف الألوسي وجهًا آخر في سرِّ تعدية الشهادة بـــ«على» ، فقال: «وكلمة الاستعلاء لما في الشهيد من معنى الرقيب ، أو لمشاكلة ما قبله» [2].

ولا نمنع أنْ تكون المشاكلة والمزاوجة سببًا من الأسباب التي ترجِّح اختيار حرف على آخر ، بشرط أنْ يكونا متساويين في الوفاء بالغرض ، أو أنَّ الحرف المختار هو الأنسب معنى. أمَّا أنْ يُعْدل إليه لمجرد المشاكلة ، وغيره أليق بمعاني الكلام ، فذلك ما لا يكون في نظم القرآن.

والذي يقع في نفسي – والله أعلم – أنَّ حرف الاستعلاء على أصله ، وليس المراد أنَّ الرسول يشهد لأمته ، وإنَّما يشهد عليها بالتبليغ، كما تشهد هي على الأمم السابقة بذلك ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ

---

(١) أساس البلاغة ٣٤١.
(٢) روح المعاني ٢/ ٥.

أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾(المزمل: ١٥).

ووجه التكريم لهذه الأمة أنْ تكون شاهدة على الأمم قبلها ، ولا يشهد عليها سوى رسولها ، وذلك دليلٌ على هيمنتها على من سبقها من الأمم ، كما أنَّ كتابها المُنزَّل على رسولها مهيمنٌ على ما بين يديه من الكتب ، وحسب هذه الأمة فخرًا أنْ تكون شاهدة لا مشهودًا عليها ، وأنْ تكون الشهادة عليها من نبيِّها وحده ، وفيه عُلُوٌّ لقدر الرسول وشرف لأمته. ألا ترى ما يوحي به تقديم الجار والمجرور من الاختصاص؟

ومن المواطن التي كثر حولها الجدل في تعدِّي الفعل بحرف الاستعلاء ، حيث الظاهر يقتضي تعديته باللام ، قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾(البقرة: ١٨٥). قال أبو حيان: «و(على) تتعلق بـــ(تكبروا) ، وفيها إشعار بالعليَّة ، كما تقول: أشكرك على ما أسديت إليَّ. قال الزمخشريُّ: وإنَّما عدِّي فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مُضمَّنًا معنى الحمد. وقوله (كأنه قيل: ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم) هو تفسير معنى ، لا تفسير إعراب ، إذ لو كان تفسير إعراب لم تكن (على) متعلقة بـــ(تكبروا) المُضمَّنة معنى الحمد ، إنَّما كانت تكون متعلقة بحامدين التي قدَّرها» [1].

على أنَّ التضمين الذي قال به الزمخشري ، وتفسيره له ، سواء كان تفسير إعراب أو تفسير معنى ، ليس إلا بيانًا لصحة تعدِّي فعل التكبير بحرف الاستعلاء ، لكن نكتة الخروج عن مقتضى الظاهر في

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٤٤.

التعدية باللام تظل معه غائمة.

وأرى – والله أعلم – أنَّ الله يريد من عباده الارتفاع إلى مستوى منْ شُكر الله على نعمه يليق بجلال هذه النعم ، والحديث هنا عن نعمة التخفيف ورفع المشقة والحرج بتيسير العبادة ، حيث رخص للمريض والمسافر بالإفطار في رمضان رحمةً بهما ، دون أنْ يحرمهما فضل الصيام متى زال المانع منه ، وذلك فضل من الله عظيم يستوجب من عباده أنْ يقابلوه بالشكر ، ويعظِّموا الله تعظيمًا يجلِّل نعمته ويغطيها ، وهذا هو ما يشيعه حرف الاستعلاء على مدخوله ، ومن فضل الله أنْ جعل الحمد على النعمة أفضل منها ، فقال – عليه السلام – فيما رواه ابن ماجة: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ» (١).

فالغرض من العدول إلى حرف الاستعلاء هو حثُّ المؤمنين على المبالغة في تعظيم الله تعالى ، والإكثار من شكره ، ومداومة الثناء عليه، بما يجلل توفيقه لهدايتهم.

وهذا المعنى للاستعلاء صرَّح به الألوسي في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾(البقرة: ١٥٧) ، فقال مُعللاً إيثار النظم لحرف الاستعلاء على حرف الاختصاص: «وأتى بـــ(على) إشارةً إلى أنَّهم منغمسون في ذلك ، وقد غشيهم وتجللهم ، فهو أبلغ من اللام» (٢).

---

(١) سنن ابن ماجة (كتاب الأدب) ٢/ ٣٨٠٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) روح المعاني ٢/ ٢٣ – ٢٤.

كما صرَّح به ابن القيم كذلك في هذه الآية ، فقال: «والغرض بذلك كثرة الصلاة والرحمة ، لأنَّ ما علاك وجلَّك فقد أحاط بك» [1].

وهذه لطيفة من اللطائف التي وقع عليها الألوسي وابن القيم ، مما يدلل على أنَّ أسرار الحروف في الذكر الحكيم لا تكاد تُحصى ، وأضيف إلى ما قالاه من التغشية والتكثير أنَّ «على» توحي بجعل الرحمة سياجًا حول المؤمن ، وحصنًا يحميه من عذاب الله ، فهو منها في غطاء يحول دون وصول غضب الله إليه ، ويحجب عنه سخطه وعقابه.

ولنتأمل معًا هذا التصوير الرائع ، وامتلاء حرف الاستعلاء بالدلالات الموحية ، في قوله تعالى كاشفًا عن حقد المنافقين من أهل الكتاب ، وما انطوت عليه أنفسهم من الغيظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ﴾(آل عمران: ١١٨- ١١٩».

ففي قوله : ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ﴾ تصوير يجسد حال هؤلاء المنافقين ، وقد امتلأت نفوسهم غيظًا وحقدًا على المؤمنين ، وأعياهم أنْ يجدوا متنفسًا له بالنَّيل منهم والكيد لهم ، فانكفأوا على أناملهم يعضونها ، ويفرغون فيها ما فاضت به نفوسهم ، وكأنَّهم من فرط غيظهم فقدوا وعيهم ، فأطبقت أنيابهم على أناملهم ، ظنًّا منهم أنَّهم

---

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ٣٩.

يلتهمون أجساد المسلمين ويتشفون فيها.

فقل لي بربك: أكان يمكن أداء هذه الصورة بكل هذه الإيحاءات والظلال ، أو أنَّ النظم جاء هكذا: «عضوا لكم الأنامل من الغيظ»؟ وهل أفصح الألوسي عن سرِّ هذا الحرف حين قال تفسيرًا لمعنى «على»: «﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ﴾ ، أي: لأجلكم» [1].

ومما هو جليٌّ في الفرق بين موقع حرف الاستعلاء وموقع اللام قوله تعالى في وصف المنافقين ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ﴾(البقرة: ٢٠).

تأمَّل كيف جاءت المقابلة دقيقة رائعة حين وُضعت اللام موضعها، دالَّةً على حصول الضوء لهم ، لائحةً بجلب النفع لهم ، ثم وُضعت على موضعها مع الإظلام لتوحي بثقله على نفوسهم ، وتشير إلى ما لحقهم من ضرر بانطفاء ضوئهم ، وكأنَّ الظلام جند من جند الله ، أطبق عليهم وأحاطهم ، وحال دون تفلُّتهم ممَّا ينتظرهم من الصواعق ، ومنعهم الهروب من مصيرهم المحتوم!

وما وقعت فيه «على» دالَّةً على التحمُّل وثقل التبعة قوله تعالى على لسان شعيب خطابًا لموسى – عليهما السلام – : ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ﴾(القصص: ٢٧).

لمَّا كان الزواج بابنة شعيب منفعةً لموسى طلب منه شعيب في مقابله مهرًا لها؛ أنْ يتحمل أعباء العمل معه ثمانية أعوام ، وجاءت «على» مشيرة إلى هذه التبعة التي ألقيت على كاهل موسى ، وما يوجبه

---

(١) روح المعاني ٤/ ٣٩.

تحمّلها من وفاء بما تعهّد به ، والتزام بأداء ما اشترطه عليه ، وما أصعب ذلك وأشدّه. و«على» هذه هي التي أطلق عليها ابن الجوزي معنى الشرط [1]. وليس هو معنى غير معنى الاستعلاء ، بل هو منبثق ممّا توحي به من التحمّل والمشقة ، وما تومئ إليه من إحساس بوطأة الالتزام وثقل المسؤولية.

ولو أنّك جئت هنا باللام فقلت: «إنّي أريد أنْ أنكحك إحدى ابنتي هاتين لأجرني ثماني حجج» ، لأشعر ذلك بأنّ شعيبًا يسعى إلى نفع يعود إليه ، ويدفع ابنته ثمنًا له ، وهذا ما لا يليق بمؤمنة حَصَانٍ كابنة شعيب ولا بمقام أبيها. لكنك مع «على» تشعر بكرامتها ، وعظم المهر الذي يتحمّله موسى في سبيل الارتباط بها ، وذلك سر إيثار هذا الحرف في موضعه.

وتأمّل موقع «على» في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾(النساء: ١١١) ، وقوله جل شأنه: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾(الإسراء: ١٥) ، وكيف يجسد لك ما يجنيه مقترف السيئات على نفسه بتعريضها لعذاب الله ، وتحميلها من الأوزار ما لا تنهض بحمله ، كما توحي إليك بضعف نفس المذنب ، وعجزه عن مغالبة شهواته وأهوائه ، فهو كمدمن خمر يعلم أنّها تهلكه ، ولكنه لا يستطيع دفعها عن نفسه ، فهو مقهور ذليل تستعبده الآثام وتسوقه الأهواء. وإليك ما قاله أبوحيان في آية النساء ، وهو من دقيق القول: «وفي لفظة (على) دلالة على استعلاء الإثم عليه ، واستيلائه وقهره له» [2].

---

(١) انظر منتخب قرة العيون ،سواظر ١٧٧.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٣٤٦

«على» وحرف الابتداء

كثيرًا ما تعدَّى الفعل بـــ«على» في مواطن من شأنه أنْ يتعدَّى فيها بـــ«منْ» ، فأسرع اللغويون والنُّحاة إلى تطبيق مذاهبهم ، قولاً بالنيابة ، أو ذهابًا إلى تضمين الفعل.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾(المطففين: ١-٣).

فذهب الكوفيون إلى أن «على» بمعنى «من» ، وذهب البصريون إلى التضمين ، قائلين إنَّ المعنى: حكموا على الناس في الكيل [1].

وإذا كان القول بنيابة الحروف بعضها عن بعض ممَّا وصفه المحققون بأنَّه من ضيق العطن ، فإنَّ تضمين الاكتيال معنى الحكم ممَّا لا تتحقق فيه شروط التضمين ، من وجود المناسبة بين معنى الكلمة ومعنى ما تضمنته ، فأيُّ مناسبة بين الحكم والاكتيال ، أو الاستيلاء ، كما ذهب إليه آخرون؟ أليس الاستيلاء والتسلط من المعاني التي يشيعها في الفعل حرف الاستعلاء؟

إنَّنا نقول إنَّه لا تضمين في الفعل ، ولا حرف الاستعلاء بمعنى الابتداء ، وإنَّما عدل النظم الكريم إلى حرف يوحي بالتحامل والغبن والإضرار بمن كُتب عليه التعامل معهم ، ولو أنَّ الفعل عُدِّي بحرفه الذي من شأنه التعدِّي به ، لما دل على ظلمهم وتجاوزهم في الاكتيال منهم.

---

(١) انظر الجنى الداني ٤٧٨.

وقد كان الزمخشريُّ خير مَنْ كشف عن اختصاص حرف الاستعلاء بما هو من مواطن حرف الابتداء ، فقال: «لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل (على) مكان (من) للدلالة على ذلك» [1].

وما قاله الفراء من صحة وقوع الحرفين مع فعل الاكتيال إنَّما هو وقوف عند الدلالة المعجمية للفعل ، وليس استبطانًا لأسرار الفعل والحرف في موقعهما من النظم. قال: «اكتالوا على الناس ، يريد: اكتالوا من الناس ، وهما تعتقبان: على ومِن في هذا الموضع؛ لأنَّه حق عليه ، فإذا قال: اكتلت عليك ، فكأنَّه قال: أخذت ما عليك ، وإذا قال: اكتلت منك ، فهو كقولك: استوفيت منك» [2].

فلو جرينا على هذا القول من أنَّ الاكتيال إذا عُدِّي بـــ«على» دلَّ على أخذ الحق ، لما كان فيه ذمٌّ للمطففين ، ولما استحقوا هذا الوصف إلا في جانب واحد ، هو جانب الإيفاء لا الاستيفاء ، لأنَّه هو الذي صرَّح فيه بالإخسار ، وليس ذلك من شأن المطففين ، الذين يغبنون الناس كيلاً منهم ، واكتيالاً عليهم.

وهذا ما صرَّح به الراغب: «وطفف الكيل: قلَّل نصيب المكيل له، في إيفائه واستيفائه» [3].

على أنَّني أُحس فوق ذلك لتعدية الفعل «كالوا» بنفسه دون اللام ، في قوله : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ ، واختصاص هذه الصيغة المجردة من

---

(١) الكشاف ٤/ ٢١٠.
(٢) معاني القرآن ٣/ ٢٤٦.
(٣) المفردات ٣٠٥.

الزيادة ، في مقابلة «اكتالوا» في جانب الاستيفاء - أُحس له وقعًا خاصًّا؛ ذلك أنَّ إنقاص الحروف وتقليلها كأنَّما يشي بالسرقة وإنقاص الكيل في الوفاء لهم ، وأنَّ زيادة المبنى في صيغة الاكتيال وتعدِّيها بحرف الاستعلاء ممَّا يشي بالزيادة في استيفاء الكيل منهم قهرًا واغتصابًا ، ممَّا تتناغم فيه الألفاظ مع المعاني تناغمًا لا يحدث مثله في نظم غير نظم القرآن الكريم. وإلا فهل مصادفة أن تُستبدَل «على» بـــ«من» ، والأولى أكثر حروفًا وأدلُّ على الجور والظلم والاستيلاء ، ثم يختار معها صيغة الزيادة في حروف الفعل لتأتي في المقابل صيغة مجردة من الزيادة ، ومن التعدية بالحرف الذي من شأنه أن يتعدَّى الفعل به ، حتى جعله أبوحيان حذفًا في قوله: «وكال ووزن مما يتعدَّى بحرف الجر ، فتقول: كلت لك ووزنت لك ، ويجوز حذف اللام ، كقولك: نصحت لك ونصحتك» [1]؟ هل كل ذلك من قبيل المصادفة؟ ولمجرد أنَّه يصحُّ في اللغة أنْ يقال هذا وأنْ يقال ذاك؟

أيُّ إعجاز هذا؟ وأيُّ نظم ذلك الذي يزيد الحرف أو يحذفه ، فيشيع في جوانب النص كل هذه الدلالات والإيحاءات بما لا تنهض به الكلمات، وتعجز عنه الجمل الطوال؟ ألا إنَّه تنزيل من حكيم حميد!

ومنه قوله تعالى في وصف المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون: ٥-٦). قال الفراء: «المعنى: إلا من أزواجهم اللاتي أحلَّ الله لهم» [2] ، وهو جارٍ على مذهبه من القول بتناوب حروف الخفض ،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٣٩.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٢٣١.

وتبادلها مواقعها.

أمَّا أبوحيان فقد جرى على طريقة البصريين في تضمين الفعل قائلاً: «والأولى أنْ يكون من باب التضمين ، ضُمِّن (حافظون) معنى (ممسكون) أو (قاصرون) ، وكلاهما يتعدَّى بـ(على) [1].

ولعل التردد في تضمين الفعل معنى الإمساك أو معنى القصر ، مما هو دليل واضح على أنَّه يبحث عن صحة التعدِّي فقط ، وليس عن أسرار المخالفة في التعدِّي ، إذ لو كان للتضمين غرضٌ بلاغيٌّ لما كان له إلا معنى واحد يفي بالغرض ولا يفي به سواه ، وهذا يفسر لك كيف يختلف القائلون بالتضمين في تقدير المعنى المتضمن ، لأنَّهم باحثون عن أي فعل يصح تعديته بالحرف الذي يتعدَّى به الفعل المُضمَّن ويكون قريبًا من معناه.

ولعل الزمخشريَّ كان أقرب إلى دلالة حرف الاستعلاء ، وما يدل عليه في هذا الموضع من عُلُوِّ مكانة الرجل ، وحقه في القوامة على المرأة ، وواجبها في طاعته والانضواء تحت إمْرته. قال الزمخشريُّ: ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ في موضع الحال ، أي الأوَّلين على أزواجهم ، أو قوَّامين عليهن ، من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها ، فخلف عليها فلان ، ونظيره: كان زياد على البصرة ، أي واليًا عليها ، ومنه قولهم: فلان تحت فلان ، ومن ثم سُمِّيت المرأة فراشًا» [2].

وتأمَّل كيف عدل القرآن عن حرف الابتداء إلى حرف الاستعلاء

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٩٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٦.

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (النساء: ١٧) ، ليفتح باب التوبة واسعًا ، ويبسط يده لمن أغرق نفسه في المعاصي والذنوب ، ويبعث الرجاء والأمل في نفسه ، ليقبل على ربه ، ويتفلت من حبائل الشيطان ، وذلك بما يعطيه على نفسه من عهده بقبول توبته ، والتكفير عن سيئاته ، ليصرفهم عن الماضي بأوزاره إلى المستقبل بآماله وفيوضات الرحمة فيه ، يحدوهم إليه حرف الاستعلاء وما يوحي به من تحقُّق ثبوت ما وُعدوا به ، وضمان قبول توبتهم ، بحكم أنَّ الله إذا وعد فلن يخلف وعده. ولو أنَّه قال: «إنما التوبة من الله...» لما أعطى للتائبين هذا الوعد الذي قطعه على نفسه ، ممَّا يثبط الهمم ، ويدفع إلى اليأس.

ألا ترى الآن كيف يجني القول بنيابة «على» عن حرف الابتداء في هذا الموضع ؟ [1] ثم ألا ترى كيف يُشيع حرف الاستعلاء في المقابل جوًّا من الرُّعب والفزع يملأ أقطار النفوس ، ويخلع أوتار القلوب ، بما يحمله من سيف القضاء النافذ ، وما ينذر به من وعيد محقق لا ينجو منه أحد في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (مريم: ٧١).

أفكنتَ واجدًا لحرف الابتداء في موقعه ما وجدتَه لحرف الاستعلاء؟

* * *

(١) انظر روح المعاني ٤/ ٢٣٨.

« على » وحرف الانتهاء

من المواضع التي يقتضي ظاهرها تعدية الفعل بـــ«إلى» ، ولكنَّ القرآن عدل عنه إلى حرف الاستعلاء ، قوله تعالى في قصة أصحاب الجنة: ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ (القلم: ٢١-٢٢)، فعُدِّي فعل الغُدوِّ بـــ«على» ، والأصل أنْ يتعدَّى بـــ«إلى»، فما سر هذه المخالفة؟

هذه الآية مشهد من مشاهد الحوار في قصة بدأها الله بقوله: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ (القلم ١٧-٢٧).

ونلاحظ أنَّ «على» تكررت في هذه الآيات أربع مرات: الأولى ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ، وهي تعبِّر عن شدة بأس الله تعالى ، وقسوة عقابه ، إذ إنَّ الطائف مرسل من ربك ، ولم يطف بها لأنَّ الطواف بالشيء تعظيم له ، وإنَّما طاف عليها ، ليعفي على كل أثر لها ، حتى إنَّ أصحابها حين رأوها لم يكادوا يتعرَّفون عليها ، ثم جاءت «على» في قوله ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ لتصور أصحاب الجنة وكأنَّهم قُطَّاع طريق يستلبون حقوق الناس ، ويبكرون لتنفيذ ما بيَّتوه حتى لا يراهم أحد ، شأنهم شأن اللصوص الذين يلتحفون الليل ويستترون به ، ليتمكنوا من سرقة ما أرادوا. ففي «على» معنى الاستيلاء على الحرث والإغارة عليه ، وهي تفصح عن نية العدوان والاغتصاب. فهل هناك تعبير عن

جور الغادين على حقوق الفقراء والمساكين أشدُّ من هذا التعبير؟ وهل يمكن لحرف الانتهاء أنْ يؤدي ما أدَّاه حرفُ الاستعلاء؟

ثم انظر إلى موقع «على» في قوله ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ ، وكيف تصوِّر وجهة نظر أصحاب الجنة ، واعتقادهم بأنَّ المساكين يغيرون عليهم ويستلبونهم رزقهم ، ويشاركونهم ما خَصَّهم الله به ، ويغلبونهم على أمرهم. إنَّه العدوان عليهم والجور على حقوقهم.

و«على» في قوله ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ تنشر على جملتها مظاهر القوة والغلبة والإدلال بالتملك والسطوة.

فانظر ماذا يفقد النظم الكريم لو سقط واحد من حروف الاستعلاء هذه ، واستبدل به حرف آخر ، وكيف ينفرط العقد وتتناثر حبَّاته؟

وهذا الذي قلتُه راجعٌ إلى ما قاله الزمخشريُّ في أحد وجهين ذكرهما تعليلاً لتعدّي فعل الغُدُوِّ بحرف الاستعلاء: «فإنْ قلتَ: هلا قيل: اغدوا إلى حرثكم؟ وما معنى على؟ قلتُ: لمَّا كان الغُدُوُّ إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوًّا عليه ، كما تقول: غدا عليهم العدو ، ويجوز أنْ يُضمَّن الغُدُوُّ معنى الإقبال ، كقولهم: يُغدَى عليه بالجفنة ويُراح ، أي: فأقبلوا على حرثكم باكرين» [1].

الوجه الأول كلام أرباب البيان ، والوجه الثاني تخريجات نُحاة ، وبينهما بَوْنٌ بعيد ، فالزمخشريُّ ملتفت في الأول إلى دلالة حرف الاستعلاء ، وما ينشره في جملته من معنى الإغارة والعدوان دون قصد إلى تشبيه الغدو بالإغارة ، كما فهم البعض ، متأوِّلين كلامه بما يدل

---

(١) الكشاف ٤/ ١٤٤.

على أنَّ في «غدا» استعارة تبعية ، أو فيه مع الحرف استعارة تمثيلية ، على حد ما جاء في روح المعاني: «وظاهر كلام جار الله أنَّ (غدا) بمعنى (بكر) ، يتعدَّى بـــ(إلى) ، وعُدِّي ها هنا بـــ(على) ، لتضمين الغُدُوِّ معنى الإقبال ، كما في قولهم: يُغدى عليه ويُراح ، أي: فأقبلوا على حرثكم باكرين. ويجوز أنْ يكون من: غدا عليه ، إذا أغار ، بأنْ يكون قد شُبِّه غُدُوُّهم لقطع الثمار بغُدُوِّ الجيش على شيء ، لأنَّ معنى الاستعلاء والاستيلاء موجود فيه ، وهو الصَّرْم والقطع ، ويكون هناك استعارة تبعية ، وجُوِّز أنْ تعتبر الاستعارة تمثيلية» (١).

ومن المواطن التي غُوير فيها بتعدِّي الفعل مرة بحرف الانتهاء ، وأخرى بحرف الاستعلاء ، فأفلض كل منهما على فعله من معناه ما يحقق أغراض النظم ومقاصده ، قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾(الصافات: ٩١ – ٩٣).

لما كان قوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ يعبِّر عن قصد إبراهيم إلى أصنامهم ، والسعي إليها خفية ، جِيء بـــ«إلى» معبِّرة عن انتهائه إليها، ومشيرة إلى جعل وصوله إليها غاية لا يلوي معها على شيء حتى يحقق ما عزم عليه.

ثم حين أراد القرآن تصوير ما فعله إبراهيم بآلهتهم وإغارته عليها جِيء بـــ«على» ، لتدل بمعنى الاستعلاء فيها على تمكُّنه منها ، وقهره لها ، وما لحقها من آثار التحطيم والتدمير ، كما تكشف عن عجز هذه الآلهة وصَغَارها ، وهي ذليلة أمام إبراهيم ينهال عليها ضربًا وتحطيمًا

---

(١) روح المعاني ٢٩/ ٣٠.

دون أنْ تدفع عن نفسها ما نزل بها من الضُرِّ ، وفي ذلك ما فيه من التهكُّم بعقول من يعبدونها. كما توحي بأنَّ إبراهيم – عليه السلام – أتى عليها جميعًا بما لم يبق على شيء منها سوى ما أراد أنْ يوري به في رده عليهم ، كما تحكيه آية أخرى ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾(الأنبياء: ٥٨). وقد نبَّه الراغب إلى نكْتة الخروج إلى حرف الاستعلاء في هذه الآية بقوله: «راغ فلان إلى فلان: مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال ، قال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ – ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ ، أي مال ، وحقيقته طلب بضرب من الروغان ، ونبَّه بقوله (على) على معنى الاستيلاء» [1].

والاستيلاء فيه معنى القهر والغلبة في مقابلة العجز والضعف والاستسلام.

ومما غُوير فيه النظم بإيصال الكلمة بـــ«إلى» مرة و«على» أخرى ، وضعًا لكل حرف في الموضع الذي هو أشبه به وأليق بمكانه – أنَّك تجد السبيل مقرونًا بـــ«إلى» تارة ، وبـــ«على» أخرى.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(آل عمران: ٩٧) ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (غافر: ١٠–١١).

---

(١) المفردات ٢٠٨.

فالحج في الآية الأولى مقصد وغاية تنتهي إليها آمال المسلمين ، وهو عبادة مفروضة على كل من وجد سبيلاً يحقق الوصول إلى بيت الله الحرام ، وليس سوى «إلى» ما يصلح لمعنى الوصول والانتهاء ومن ثمَّ أوصل السبيل بها.

وفي الآية الثانية يتلمس الكافرون ، وهم يُعذَّبون في نار جهنم ، طريقًا إلى الخروج ، ويصرخون ضارعين إلى الله تعالى أنْ يستجيب لندمهم ، ويعفو عنهم بعد أنْ أقروا بذنوبهم ، وغاية آمالهم أنْ يجدوا سبيلاً ينتهي بهم إلى خارج جهنم ، ولعل رغبتهم الجامحة في إيجاد نهاية لما يعانونه ، والهرب من عذاب النار – هي التي جعلتهم يقدمون الجارَّ إسراعًا إلى المقصود ، وانتهاء إلى الغرض.

وحين يكون المراد إظهار التمكُّن والقهر ، والدلالة على الغلبة والعلو ، تأتي «على» مُجسِّدة هذه المعاني ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾(النساء: ١٤١).

فقد كشف حرف الاستعلاء عن دخائل الكافرين ، ورغبتهم في التسلُّط على المؤمنين وإذلالهم ، وبسط سيطرتهم عليهم ، ولكنَّ الله بمعيته للمؤمنين لا يُمكِّنهم من رقابهم ، فهم أعزَّاء بالله أبدًا ، لذا لم يقل: «ولن يجعل الله للكافرين إلى المؤمنين سبيلاً»؛ لأنَّ الله قضى أنْ يتصارع الحق والباطل ، ويلتقي الكافر بالمؤمن ، ولكنه وعد أنْ لا يمكِّن الكافرين من المؤمنين ، وأنْ لا تكون لهم الغلبة عليهم.

ولمَّا كان للحق سلطانه وقوته ، وللظلم استخذاؤه وأثقاله ، أوصل

السبيل بـــ«على» في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ (الشورى: ٤١-٤٢).

فالمنتصر مِنْ ظُلمٍ وقع عليه مرفوع القامة ، مستريح الضمير ، لا مؤاخذة عليه ولا تبعة تثقله ، أما الذين يظلمون الناس بغيًا في الأرض وفسادًا فهم يحملون ثقل جرائمهم ، وتطاردهم آثامهم ، وكأنهم يحملونها على ظهورهم ، يترقبون الانتقام منهم ، ويخشون إغارة المظلوم عليهم.

قال العز بن عبدالسلام: «وفي الآية سؤال آخر في قوله : ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ ولم يقل: (ما إليهم) ، وهو الحقيقة ، إذ يقال: طريق إلى مكان ، وسبيل إليه.

والجواب أن (على) يُستعمل في الضرر ، كقوله ﴿ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ ﴾، وكقولنا: (عليه دين) ، والمقصود ها هنا إنما هو نفي الضرر عنهم إذا طلبوا حقوقهم ، فكان الاهتمام بالمقصود أولى» [1].

ومن المواطن التي التبس أمرها عليَّ فرقًا بين «إلى» و«على» ، كما التبس على غيري ، وجال الباحثون فيه كثيرًا فأتوا بما لا يقنع ، تعدّي فعل الإنزال بـــ«إلى» حينا ، وبـــ«على» حينا آخر ، وخاصة فيما اشتبه نظمه ، كما في قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾(البقرة: ١٣٦).

وقوله: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ

---

(١) الفوائد في مشكل القرآن ١٥٧.

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾(آل عمران: ٨٤).

قال الغرناطي تفسيرًا لهذه المخالفة بين الحرفين: «إن قوله في البقرة﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ ، لما قيل قبله: «قولوا» ، وهو أمر للرسول ومن اتبعه على التشريك ، كالوارد في قوله ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، ثم قال: وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا فشرك بينهم ، وأخبر سبحانه أنَّ الجميع قالوا ذلك ، وكذا أمر هنا جميعهم ، فقال: «قولوا» ، وإذا كان الأمر للجميع ، وجرى على حقيقته ، فإنَّما أنزل إليهم؛ لأن المُنزَّل عليه حقيقةً هو الرسول لا المؤمنون. وإذا قلنا: أنزل على المؤمنين فمجاز ، كما أنَّا إذا قلنا: أنزل إلى الرسول لم يقع موقع أنزل عليه ، وإنْ كان كل منهما جائزًا إلا أنَّا إذا أخذنا الكلام على ألا تضمين ولا تقدير ، فإنَّما نقول: أنزل على الرسول ، وأنزل إلى المؤمنين ، مع فصاحة (أنزل إلى الرسول) ، وروده في القرآن .

فلما قال في سورة البقرة (قولوا) ، وأمر الجميع ناسبه (إلينا) كما ورد في قوله تعالى ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ ، حين خوطب الجميع ، ولما قال في آل عمران (قل) ، وكان الخطاب للرسول ناسبه (علينا)؛ لأنه أنزل عليه ، فجاء كُلٌّ على ما يجب» [1].

وما قاله الغرناطي منقوض بكثير من آيات القرآن ، ويكفي أنْ يجيء الخطاب للرسول وحده في آيتين ، وإحداهما عُدِّي فيها الإنزال بـ«على» ، والأخرى بـ«إلى» ، وهما قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ

(١) ملاك التأويل ١/ ٩٦.

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (الزمر: ٢) ، وقوله ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (الزمر: ٤١) ، وهما في سورة واحدة ، ثم يأتي مُعدَّى بـــ«على» والخطاب للمؤمنين وحدهم ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ (البقرة: ٢٣١).

وقد نقل أبوحيان عن الراغب تعليلين لمغايرة التعدية: «وقال الراغب: إنَّما قال هنا (على) لأنَّ ذلك لمَّا كان خطابًا للنبي – صلى الله عليه وسلم – وكان واصلاً إليه من الملأ الأعلى بلا واسطة بشر ، كان لفظ (على) المختص بالعُلُوّ أولى به ، وهناك لمَّا كان خطابًا للأمة ، وقد وصل إليهم بواسطة النبي – صلى الله عليه وسلم – كان لفظ (إلى) المختص بالإيصال أولى. ويجوز أنْ يقال: (أنزل عليه) ، إنَّما يحمل على ما أمر المنزل عليه أن يبلغ غيره ، و(أنزل إليه) ، على ما خص به في نفسه ، وإليه نهاية الإنزال ، وعلى ذلك قال: "أو لم يكفهم أنا أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" خص هنا بـــ(إلى) ، لمَّا كان مخصوصًا بالذكر الذي هو بيان المنزل ، وهذا كلام في الأولى لا في الوجوب» [1].

والتعليل الأول هو نفس ما ذكره الغرناطي فيما نقلناه ، وقد بيَّنا ما فيه ، أمَّا التعليل الثاني فهو منقوض كذلك بنصوص القرآن ، من مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ ، وهو صريح في الأمر بتبليغ ما أنزل إليه ، ولو جرى على ما قاله الراغب لقال: «ما أنزل عليك» ، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٥١٦ – ٥١٧.

تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ ﴾ (المائدة: ٨٣) ، وهو أكثر وضوحًا في الدلالة على أنَّهم سمعوا ما أمر بتبليغه ، ومع ذلك فقد عُدِّي الفعل بـــ«إلى».

وقد سبق الزمخشريُّ إلى رفض مثل ذلك التعليل: «فإنْ قلتَ: لِمَ عُدِّي (أنزل) في هذه الآية بحرف الاستعلاء ، وفيما تقدَّم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلتُ: لوجود المعنيين جميعًا؛ لأنَّ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر ، ومن قال: إنما قيل (علينا) لقوله (قل) ، و(إلينا) لقوله (قولوا)؛ تفرقةً بين الرسول والمؤمنين ، لأنَّ الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء ، ويأتيهم على وجه الانتهاء - فقد تعسَّف ، ألا ترى إلى قوله ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ- وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ ، وإلى قوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾»[1].

ومع أنَّ الزمخشريَّ كان على حق فيما ردَّ به ، فإنَّه لم يفسر لنا سرَّ اختصاص موضع بـــ«إلى» ، وآخر بـــ«على» ، والقولُ بأنَّ الانتهاء والاستعلاء كليهما يصلحان لتعدية الفعل بهما - لا يكفي في استجلاء أسرار الذكر الحكيم.

كما أنَّ القول باختلاف التعدية للتفنن في العبارة ، كما ذهب إليه الألوسي ، لا يشبع نهم الباحث عن بلاغة القرآن الكريم. يقول الألوسي: «والتحقيق أنَّه لا فرق بين المُعدَّى بـــ(إلى) والمُعدَّى بـــ(على) إلا بالاعتبار ، فإن اعتبرت مبدأه عدَّيته بـــ(على)؛ لأنه فوقاني ، وإن اعتبرت انتهاءه إلى من هو له عدَّيته بـــ(إلى) ، ويلاحظ أحد الاعتبارين

---

(١) الكشاف ١/ ٤٤٢.

تارة ، والآخر أخرى تفننًا بالعبارة» [1].

ولم أجد لأحد في ذلك كلامًا يستريح إليه ضمير الباحث غير ما قاله الخطيب الإسكافي ، وقد تعرَّض للحديث عن تعدية الإنزال بـــ«على» و«إلى» مرتين في كتابه؛ الأولى في سورة البقرة ، ولم يقل فيها أكثر ممَّا قاله الراغب ، كما نقله أبوحيان ، والثانية في سورة الزمر حين تساءل عن سرِّ التعدية بـــ«إلى» في قوله ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر: ٢) ، والتعدية بـــ«على» في قوله ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾(الزمر: ٤١) ، وفي هذه المرة فتح الله عليه بما احتجب عنه في المرة الأولى.

وهذا نصُّ ما قاله في آيتي الزمر: «والجواب أنْ يقال: قد تقدم قولنا في الفرق بين (أنزلنا إليك) ، و(أنزلنا عليك) ، وأنَّ (على) يتضمن معنى فوق ، وأنْ يكون الوحى جاءه من تلك الجهة ، وأنَّ (إلى) للنهاية، فلا تختص بجهة دون جهة ، وكذلك كان أكثر المواضع التي ذكر فيها إنزال القرآن على النبي – صلى الله عليه وسلم – عُدِّي بـــ(على) ، كقوله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وكقوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ ﴾ ، وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ وقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ . وأكثر ما جاء ذكر إنزاله على الناس جاء مُعدًّى بـــ(إلى) ، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

---

(١) روح المعاني ٣/ ٢١٥.

جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ ، ثم كل موضع قيل فيه: (أنزلنا إليك) ، فقد شدد فيه التكليف عليه ، ونزل منزلة أمته ، فيما يجب على عالمهم تبيينه لمتعلمهم ، كقوله في أول هذه السورة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، فقد أمر بإخلاص العبادة ، والمراد هو وأمته ، وكقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، فكان المراد في المواضع التي استعملت فيها (إلى) أنَّه تناهى إلى حيث لا متعدَّى وراءه من عالم سنة مقصورة عليه ، فكل موضع عُدِّي فيه الإنزال بـــ(على) فإنَّ المراد به أنَّه شرَّفك ، وأعلى بذلك ذكرك ، لتؤدى ما عليك فتنذر وتبشر ، فمن قَبِل فحظَّه أصاب ، ومن أعرض فنفسَه أوبق ، ويكون به تهديد لمن ترك القبول ، كقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ثم قال ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾» [1].

وقد تتبَّعت ما جاء في القرآن من مادة الإنزال ، فأحصيت منها سبعة وعشرين موضعًا عُدِّيت بـــ«على» ، ومثلها عُدِّيت بـــ«إلى» ، فيما خص فيه الإنزال بمن نزل عليه الوحي من النبيين ، ولم يشاركهم فيه من أمروا بتبليغه إليهم ، ولئن صحَّ هذه الإحصاء – وهو إنْ شاء الله صحيح – فإنَّ هذا التساوي في العدد بين ما عُدِّي بـــ«على» وما عُدِّي بـــ«إلى» لابد أنْ يلفت النظر ويستدعي الوقوف عند هذا الضرب من الإعجاز ، على أنْ لا يكون تفسيرنا لهذه الظاهرة واقفًا عند الحد

(١) درة التنزيل ٤٠٣ – ٤٠٤.

الذي وقف عنده القائلون بالإعجاز العددي ، في محاولة للتوصل إلى نتائج أقل ما يقال فيها إنها تصرف الفكر عن تدبُّر معاني القرآن وأسراره. وتفسير ذلك عندي أنَّ هذا التساوي هو دليلٌ على التوازن بين مواطن التشريف ومواطن التكليف ، أو قل إنه تكافؤ الحقوق والواجبات، وذلك إذا نحن سلَّمنا للإسكافي بأنَّ «على» تأتي دالة على التشريف ، و«إلى» تنحو منحى التشديد في التبليغ والعمل بالمُنزَّل ، ونحن مسلمون له ذلك إنْ شاء الله ، بناءً على استقراء هذه المواضع جميعًا ، ما تعدَّى منها بـ«على» ، وما تعدَّى بـ«إلى» ، حيث وجدت ما يشبه أنْ يكون ظاهرة عامة ، تبدو فيها روح التكريم والتشريف للأنبياء في كل المواطن التي تعدَّت بـ«على» ، وروح الحث والاستنهاض ، وحدَّة النبرة في الدعوة إلى التمسك بالمُنزَّل ، والالتزام به ، وعدم الحيدة عنه أو التفريط فيه ، فيما تعدَّى بـ«إلى» ، وهذه نماذج دالة وأمثلة هادية:

فممَّا جاء مُعدًّى بـ«على» هامسًا فيه حرف الاستعلاء بشرف المُنزل ورفعة مَنْ أنزل عليه ، قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٣) ، ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾(آل عمران: ٣-٤) ، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١) ، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٣) ، ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(البقرة: ٩٧) ، ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن

فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ (البقرة: ٩٠) ، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (النساء: ١١٣) ، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٥١) ، ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ (طه: ١-٢) ، ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ (النحل: ٢).

وممَّا جاء مُعدًّى بـ«إلى» ، وهمس فيه حرف الانتهاء بضرورة إنهائه إلى المبلغين ، وتقديمه إليهم في صورة واضحة ، والتشديد على من انتهى إليه العلم بالكتاب أنْ يعمل بما علم ، وتحذير من أنزل إليه الكتاب من أنْ يشغله عن قصده وهدفه أحد ، قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: ١٠٥) ، ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَّيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة: ٤٩) ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾ (المائدة: ٦٧) ، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ (النساء: ٦٠) ، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَّيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ (المائدة: ٤٨) ، ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ (يونس: ٩٤) ، ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ

لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٢) ، ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (القصص: ٨٧) ، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (الزمر: ٢).

وإنْ شئت المقارنة فهاتان آيتان من مشتبه النظم هما قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران: ٣-٤) ، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ (المائدة: ٤٨).

فلاشك أنَّك واجدٌ في الأولى روح التشريف والتعظيم لقدر مَنْ نزل عليه الكتاب ، وكفي شرفًا له أنْ يعاد ذكر القرآن المُنزَّل عليه مرة أخرى ليكون مفتتح الكتب المُنزَّلة ومنتهاها. وفي المقابل تجد روح التكليف والتشديد ، وتحذير الرسول من أنْ يصرفه عن هدفه وطريقه ذوو الأهواء من أهل الكتاب.

***

زيادتها مع الفعل المتعدي

قد يكون الفعل مما يتعدَّى بنفسه ، ولا يحتاج إلى واصل ، ثم تزاد «على» فتخلع على النظم من معانيها ما يحقق أغراضه ، ويبرز مقاصده.

من ذلك قوله تعالى على لسان رسوله في خطاب زيد بن حارثة ، وقد أذاه استعلاء امرأته زينب بنت جحش ، وهمَّ بطلاقها ﴿ وَإِذْ تَقُولُ

لِلَّذِىٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِى فِى نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ ﴾ (الأحزاب: ٣٧) ، فلم يكتف الرسول بقوله «أمسك زوجك» لتجيء «على» مطالبة زيدًا بمزيد من التحمُّل والصبر على أذى زوجه ، مفصحة عما يعانيه من وطأة التعالي عليه ، مدفوعة بكرم المحتد ، وشرف الأرومة ، وما أصعبه على نفس الرجل؛ أنْ تتقاله امرأته ، وتأنف عليه. ولو رُحت تحذف حرف الاستعلاء لما كان للنظم هذا المذاق ، ولما شعرت معه بما يعانيه زيد ويحس به.

ومنه تعدِّي الفعل «ربط» بـ«على» ، وهو مما يتعدَّى بنفسه ، فتقول: ربط الدابة ، إذا شدَّها برباط. ومن مجازه: ربط الله على قلبه: إذا صبَّره [1].

وقد ورد هذا الفعل متعديًا بـ«على» في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم ، وهي جميعًا مجاز عن إلهام الله أصحاب القلوب الصبرَ ، وتقوية عزائمهم في مواقف تضطرب لها القلوب الثابتة ، وتخور فيها العزائم الصلبة.

الموضع الأول في غزوة بدر ، حين اضطربت قلوب المؤمنين قبيل أول معركة بين الإيمان والشرك ، وتثاقلت النفوس عن لقاء المشركين ، كما يصوِّره قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ ، فكان من رحمة الله بالمؤمنين أنْ أمدَّهم بروح منه ، وأنزل عليهم السكينة ، وربط على قلوبهم بالإيمان ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً

(١) انظر أساس البلاغة ٢١٦ وما بعدها.

مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ١١).

والموضع الثاني: فيما حكاه الله تعالى عن أهل الكهف وهم يجابهون سطوة الشرك ، ويجاهرون بإيمانهم ، ويتحدون قوى الشرك ، معلنين توحيدهم لله في مظاهرة إيمانية ، لا يستطيعها إلا مَنْ ثبَّت الله قلبه ، وملأه يقينًا به ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (الكهف: ١٣ – ١٤).

والثالث: في قصة أم موسى ، بعد أنْ ألقت بابنها في اليمِّ ، فضعفت وأصابها الفزع والخوف عليه ، وخارت قواها ، ولولا أنْ تداركها الله بلطفه ، وثبَّت قلبها ، لأسلمت وليدها بنفسها إلى الموت ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (القصص: ١٠).

وفي تعليل دخول حرف الاستعلاء على القلوب دون تعدِّي الفعل بنفسه حكى الألوسي عدة تفسيرات: «قال الواحدي: ويشبه أن تكون (على) صلة ، أي: وليربط قلوبكم. وقيل: الأصل ذلك ، إلا أنَّه أتى بـ(على) قصدًا للاستعلاء ، وفيه إيماء إلى أنَّ قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنَّه علا عليها ، وفي ذلك من إفادة التمكُّن ما لا يخفى» [1].

هذا ما قاله الألوسي في آية الأنفال ، ثم قال في آية الكهف:

---

(١) روح المعاني ٩/ ٧٦.

«وعُدِّي الفعل بـــ(على) ، وهو متعدٌ بنفسه ، لتنزيله منزلة اللازم» [1].

ولسنا نستحسن أن تكون «على» صلة ، بمعنى أنَّها زيادة في المبنى لا يقابلها زيادة في المعنى ، أو أنَّ الزيادة لمجرد التأكيد ، كما جرت العادة في تعليل كل زيادة ، كما أنَّ تنزيل الفعل منزلة اللازم ، بمعنى أنَّه أوقع الربط على القلوب ، ليس مما يستلهم أسرار الحروف.

بقي لنا القول بأنَّها جاءت قصدًا للاستعلاء ، إيماءً إلى أنَّ القلوب امتلأت ثقةً ويقينًا حتى فاض عليها وعلاها ، وهو أقرب إلى روح النظم وأدلُّ على أسرار الحرف. ذلك أنَّ الاستعلاء هنا ينشر من ظلاله على ما حوله معنى تغشية الله هذه القلوب وتجليله لها ، وما أفاضه عليها من الثقة به ، والاطمئنان إلى معيته ، ما أحاطها بغطاء من الأمن والثبات ، فلم يعد يتسرب إليها الخوف ، ولا ينفذ إليها الضعف والوهن ، ولا يصل إليها ما يزعجها بعد أنْ بسط الله تعالى عليها يده ، ونشر عليها غلالة من حمايته.

ومن بديع مواقع زيادتها في الكتاب المجيد ، قوله تعالى تهديدًا للمشركين ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (محمد: ١٠).

فهؤلاء المشركون يمرُّون مصبحين ومُمْسين على أمم كانت أشدَّ منهم قوةً ، وأكثر أموالاً وأولادًا ، أبادها الله ومحاها من الوجود ، فأصبحت أثرًا بعد عين ، فهدَّدهم الله تعالى بذات المصير: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

---

(١) السابق ١٥/ ٢١٨.

وإذا كان الإنسان في بعض أحواله يُقبل راضيًا على الموت ، إذا اطمأن على عقبه من بعده ، وعلم أنَّ بينَ أيديهم من المال ما يضمن لهم عيشة راضية ، فإنَّ القرآن آثر في وعيده لهم أنْ يعبِّر بما يدل على إهلاكهم وإهلاك أموالهم وأولادهم ، ليكون وقعه على نفوسهم أشد ، وأثره على قلوبهم أقوى وأفظع ، لذا لم يقل: «دمرهم الله» ، حتى لا يُفهم أنَّ العذاب وقع على الكافرين وحدهم ، وأصابهم في أنفسهم دون أموالهم وأبنائهم ، وجاء بـــ«على» مشيرة إلى أنَّ بأس الله وانتقامه قد امتدَّا إلى كل ما يختص بهم من أهل وولد وما جمعوه وشيَّدوه ، ومن ثم كان «دمَّر عليه» أبلغ من «دمَّره» ، لما فيه من حذف المفعول وتناسي وجوده ، ولزيادة «على» المُشْعرة بأنَّ التدمير أتى على كل شيء حولهم، ولم يُبق من أثرهم شيئًا.

وتأمَّل هذه المبالغة في الحرص على المشاهدة وإنعام النظر ، وظهور المشاهَد حتى لكأنَّه ملءُ العين والبصر ، في قوله تعالى على لسان الملأ من قوم إبراهيم ﴿ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦١).

والآية أحد المشاهد في قصة إبراهيم – عليه السلام – بعد أنْ أتى على آلهتهم تحطيمًا وتدميرًا ، وهو حدث فريد ، وفاعله رجل في نظر القوم عجيب ، ولا تكاد عقولهم تستوعب ما سمعوا ، ولا تصدق أبصارهم ما ترى. لذا لم يكتف النظم الكريم بقوله «فأتوا به» ولم يقل: «أمام أعين الناس» ، وآثر حرف الاستعلاء ، ليدلَّ على بالغ دهشة القوم، وعدم إمكان تصديق خبر كهذا ، يجرؤ فيه إنسان على تحطيم آلهتهم ، فهم بحاجة إلى أنْ يقلبوا فيه أعينهم ، ويحدقوا فيه بأبصارهم ،

ولابد أنْ يكون في مكان ظاهر تراه فيه أعين الجميع ، ويستعلي فيه على أبصارهم وهم يشهدون محاكمته. يقول أبوحيان: «و(على) معناها الاستعلاء المجازي ، كأنَّه لتحديقهم إليه ، وارتفاع أبصارهم لرؤيته ، مُستعلٍ على أبصارهم» (١).

ومما عُدِّي فيه الفعل بـــ«على» ، وأصله أنْ يتعدَّى بنفسه ، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨).

وكثيرا ما تعدَّى هذا الفعل بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾(النمل: ٨٧) ، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ (الكهف: ٧٧) ، ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾(الذاريات: ٢٤).

وهو حين يتعدَّى بنفسه يدل على: معنى الوصول إلى المأتيِّ ، أمَّا حين يُعدَّى بحرف الاستعلاء فإنَّه يكتسب منه الدلالة على شدة وطأة الآتي ، وما يصحبه من إيقاع بما أتى عليه ، وإضرار به يصل إلى حد إفنائه وإبادته ، ومنه «أتى عليهم الدهر: أفناهم» (٢).

وقد عكس حرف الاستعلاء في آية النمل آثار الذُّعر الذي أصاب عالم النمل ، والأضرار التي لحقت بواديه ، وشدة وطأة جند سليمان عليه ، وهم يضربون الأرض بأقدامهم في مظاهرة للقوة والخيلاء ، ممَّا حدا برائدة القوم أنْ تصدر أمرها بالانسحاب من طريقهم ، والإيواء إلى

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٢٤.
(٢) أساس البلاغة ١١.

مساكنهم. ولعلك تلمس آثار حرف الاستعلاء في قول النملة ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ ﴾.

وقد علَّل الزمخشريُّ مجيء «على» بوجهين لا أرى فيهما ما يُفصح عن سر الاستعلاء كما يجسده هذا الحرف؛ فالوجه الأول واقفٌ عند استعلاء حسي لا ينهض ببلاغة النظم ، والثاني بُني على أنَّ الجنود كانوا محمولين على الريح ، وأرادوا النزول عند منقطع الوادي ، وليس في النظم ما يدل عليه ، فقد جاء قبل هذه الآية قوله ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾، فلِمَ لا يكون كل جنس من الجنود محشورًا على هيئته التي خُلق عليها ، فيكون الإنسُ على الأرض، والطيرُ في السماء ، وما معنى قوله «يوزعون» إذا كانوا محمولين على الريح؟

وهذا نصُّ الكشاف: «فإنْ قلتَ: لِمَ عُدِّي (أتوا) بـــ(على)؟ قلتُ: يتوجه على معنيين: أحدهما أنَّ إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء ، كما قال أبو الطيب:

وَلَشَدَّ مَا قَرُبَتْ عَلَيْكَ الأَنْجُمُ

لما كان قربًا من فوق ، والثاني: أنْ يراد قطع الوادي وبلوغ آخره، من قولهم أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره ، كأنَّهم أرادوا أنْ ينزلوا عند منقطع الوادي ، لأنّهم مادامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم» [1].

---

(١) الكشاف ٣/ ١٤١.

وأشعرت «على» بمعنى الإهلاك والإبادة في قوله تعالى: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (الذاريات: ٤٢).

كما دلَّت على الإشراف وعُلُوّ الآتي على المأتي في قوله عز وجل: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ﴾ (الأعراف: ١٣٨) ، فإنَّ العاكفين على عبادة أصنامهم من راكع وساجد ومُنحنٍ ، والقادمون يرمقونهم بأبصارهم من علٍ ، فهم بإشرافهم عليهم مستعلون عليهم ، متمكنون من مشاهدتهم. وليس ببعيد أنْ تومئ «على» إلى انحطاط عبدة الأصنام ، وتسفُّل إدراكهم ، وحقارة شأنهم ، ويكون الاستعلاء مجازيًا ، ولعله أدخل في نكت القرآن الكريم.

ومن الاستعلاء الدال على الإشراف والتمكُّن من رؤية المشرَف عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٤٠).

حيث أراد القرآن تصوير غفلتهم ، وما أصاب أبصارهم من العمى، وعقولهم من التبلُّد والجمود ، وهم يطالعون في أسفارهم آثار عقاب الله تعالى وعذابه ، أبصارهم شاخصة فيما أصاب القرية ، وما حلَّ بأهلها نتيجة كفرهم ، فلم يدعهم ذلك إلى النظر والتفكُّر مع تمكُّنهم من الرؤية ، ووضوح آثار العذاب.

وليس هناك ما يدعو إلى تضمين الإتيان معنى المرور [1] ، ليصحَّ تعديته بحرف الاستعلاء ، ذلك أنَّ الإتيان على القرية يدلُّ على أنَّه تمكَّن

---

(١) انظر روح المعاني ١٩/ ٢١.

منها واحتواها كلها بنظره ، ووقف على مشاهد الآثار فيها ، وهو أدلُّ حينئذٍ على الحُمْق والغفلة من المرور بها ، لأنَّ المارَّ عَجِلٌ يود الإسراع في الوصول إلى غايته ، وذلك قد لا يمكِّنه من رؤية المارِّ عليه كما يتمكَّن الآتي ، فلماذا التدني بدلالة الفعل مع غناء حرف الاستعلاء بالإشارة إلى المقصد والغرض؟

وانظر إلى معنى الاستعلاء والقهر الذي أضفاه حرف الاستعلاء على فعل من شأنه أنْ يصل إلى مفعوله بنفسه ، في قوله تعالى على لسان أصحاب النار: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٦) ، ردًّا على سؤال الله أو الملائكة لهم: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

فالفعل «غلب» ممَّا يتعدَّى بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

وعُدِّي بـ«على» هنا إيحاءً بمعنى الاستيلاء والقهر ، وعجز المغلوب عن انتزاع ما سُلب منه ، والمسلوب هنا أنْفسُ الكافرين وعقولُهم ، وذلك تصوير للشقاوة المكتوبة عليهم بصورة القاهر الذي غلبهم على أنفسهم ، فانتزع منهم عقولهم وأبصارهم وأسماعهم ، فلم يستمعوا إلى آيات الله ، ولم يبصروا آثاره الدالة عليه ، ولم يتدبروا آياته. وفرق كبير بين «غلبتنا شقوتنا» ، و«غلبت علينا شقوتنا» ، كما أنَّ هناك فرقًا بين «غلبه» وبين «استولى عليه» ، وبذلك فسَّره الراغب:

«وغلب عليه كذا ، أي استولى : ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ » [1].

ومن دقيق ما جاء فرقًا بين تعدية الفعل بنفسه وتعديته بـ«على» قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ (يس: ٦٥-٦٦) ، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾(القمر: ٣٧).

والمتأمّل لأعطاف السياق في السورتين لا يقبل أنْ يكون طمسُ الأعين هو نفسه الطمس على الأعين ، كما يوحي به قول الراغب: «الطمس: إزالة الأثر بالمحو. قال ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ ، ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ ، أي: أزل صورتها ، ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾، أي: أزلنا ضوءها وصورتها كما يطمس الأثر» [2]؛ لأنَّ «على» بهذا القول تصبح زائدة لغير معنى ، ونحن نرى أنَّ ثمة فرقًا بين طمس الشيء ، وهو إزالة أثره ، والطمس على الشيء ، بمعنى حجبه وإخفائه، كما يوحي به حرف الاستعلاء. وكما دل السياق في سورة «يس» على أنَّ الطمس على أعينهم هو إزالة ضوئها وحجب الرؤية عنها ، فكما قال قبلها ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ دالاً على إعجازهم عن الكلام وإفقادهم حاسة النطق ، دون محو أفواههم ، فكذلك الطمس على أعينهم: أراد به إفقادهم القدرة على الإبصار بذهاب ضوء الأعين ، يؤكد ذلك قوله

---

(١) المفردات ١٦٤.
(٢) السابق ٣٠٧.

تعالى: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ ، فآلة الإبصار موجو... ولكنَّ الله عطَّلها فلا يستطيعون الإبصار بها. أمَّا آية القمر فهي تصوِّر مشهدًا من مشاهد التعذيب لقوم لوط ، حيث مسخهم الله تعالى ، وسوَّى أعينهم بوجوههم ، فأزال ضوءها وصورتها ، نكالاً لهم وتمثيلاً بهم ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ، وبهذا الذي قلت قال صاحب اللسان: «وفي التنزيل العزيز ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ يقول: ولو نشاء لأعميناهم» (١).

ومثل ذلك مستفيض في كتاب الله يشي به حرف الاستعلاء ، ويدلُّ عليه ، من مثل قوله تعالى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (الكهف: ١١) ، وقوله ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ (البقرة: ٧) ، وهو في كل ذلك لا يقصد سوى تعطيل الحواس عن الإدراك.

---

(١) لسان العرب ٥/ ٢٧٠٤.